



الخطط المائلة في ثورة الصَّيْر



لِحَيْطَانِ الْمَائِلَةِ فِي ثَوْرَةِ الصَّيْرِ

الدكتور محمد راجوادی

الخطاب المأثلة في ثورة الضمير





الطبعة الأولى

2020 - 1442

ISBN 978-625-7682-14-5



هذا الكتاب

نقدم في هذا الكتاب ستة عشر فصلاً تستهدي بالأسلوب أو الشكل الموسيقي في مقارنة الحدث وتصويره فتختار المقام المناسب للحالة الوجدانية أو تلجأ إلى الصيغة المسرحية الكفيلة بتمكين الحقائق الهادئة من أن تعبر عن نفسها بوضوح مشع بما ينبغي علينا أن نكون واعين له من ثنايا وحوايا تجاربنا الثورية والديموقراطية التي دفع الشباب الطاهر ثمنها من دمائه عن إيثار وإيمان . نستعرض في هذه الفصول أنماطاً من العلاقات التي حكمت الأفعال وردود الأفعال ونبين عن وجوه الخطأ و الصواب في المقاربات الشائعة لقضايا التحرر السياسي و استشراف الارتقاء الانساني في السياسة و التنمية على حد سواء . نتبسط فيما نعرضه إلى حد الاستعانة بما يشبه سرديات الرواية المستطردة لكننا في الوقت ذاته لا نبتعد عن جوهر تعبير الحقيقة عن مضمونها وعن مكوناتها .

نذهب إلى القول الصريح بأن أصحاب السلطة لم يحققوا لفكرهم أية نتيجة من من الحوارات التي دعوا إليها ، بل على العكس من هذا فقد كانت هذه الحوارات دافعاً لهم للجوء إلى العنف، ذلك أنهم لم يكونوا سعداء بمن جاملوهم ، لكنهم كانوا غير سعداء بمن أرشدوهم إلى الصواب، أو من أظهروا لهم التعجب من أسلوبهم في الحوار والتعامل مع نتائجه ، وهكذا كانت الحوارات تعيدهم إلى العنف ، والتفكير في العنف ، والإيمان بالعنف ، والعودة إلى استراتيجية أخرى من أجل الحصول على الإذن الأمريكي بالتغاضي عن العنف ، وكانت هذه الاستراتيجية تحتاج إلى تركيم (ولا نقول إلى تراكم) أدلة كثيرة تؤيدها وتجعلها أمام الأمريكيين (المخابراتيين والرسميين والدبلوماسيين) بمثابة البديل الوحيد، ولما اكتشف الانقلابيون أن هذا غير ممكن اندفعوا إلى التحذير من قوة الإسلام ومن الإسلام ومن أن الإسلام هو البديل الوحيد المتاح ، ومن ثم فلا بد من محاربة الإسلام ، ولما كان هذا غير لائق بأي منطق فقد استعاروا كلمة الإرهاب لتوضع مكان الإسلام ، وعلى الرغم من اختلافي مع الأمريكيين في كثير من التشخيصات العمومية والتشخيصات الجزئية ، فلا بد لي من الاعتراف بأن تركيزهم على فهم كلمة العنف واستخدام العنف كان عبقرياً بكل ما تعنيه كلمة العبقرية.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأدعوه جل جلاله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربها الطبيعية في ظل غربتي ومرضي وتشردي واستيحاشي ، والوقت لا يسعني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، والألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، والسهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعع، والعمر قصير، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، و شرور العجز و الكسل و الوهن ، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدي برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي وحدسي و ذائقتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل ، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وإخلاص المؤمنين ، وعطاء المحسنين ، وشك الأطباء، وتثبت العلماء ، وخيال المبدعين ، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د. محمد الجوادي

الفصل الأول

مقدمة من مقام الرصد لقصة النائب

أبدأ بالتلخيص الشديد قبل التشويق المفيد ، فمقام الرصد هو نفسه مقام الراسـت ، لفظ الرصد تركي، و لفظ الراسـت فارسي، أما المقابل العربي فغير قابل للاستعمال موسيقيا لأنه محتكر طبيا وتشريحيا وهو المستقيم ، ويقول العلماء عن حقوق العلوم في المصطلحات تعبيراً جميلاً وهو : لا مشاحة في المصطلحات .

ولمن لا يعرفون المقامات الموسيقية إلا بالأغاني المشهورة فإن هذا المقام هو المقام الغالب على اللحن الذي وضعه الفنان الأستاذ سيد مكاوي لأغنية يا مسهرني للسيدة أم كلثوم ، و أظن أن هذا التلخيص على قصره كاف للتعبير عن الجزء الأول من قصة النائب .

كان النائب قد بنى كل مستقبله على أنه سيرث الرئيس مبارك وربما أنه "تسلم" نبوءة بهذا المعنى تسلمها استماعاً أو قراءة أو رمزاً أو إيماء .. لكن هذا لم يحدث فيما يتعلق بالرئاسة ، وإن كان قد ورثه بالفعل في منصب نائب الرئيس الذي ظل شاغراً من ١٩٨١ وحتى ٢٠١١ وقد قضى فيه النائب عدة أيام قبل أن يطلب إليه المجلس العسكري أن يغادر مكتبه في الرئاسة ، فلم يعد هذا المكتب له ، لم تعد هناك رئاسة ولا رئيس ولا نائب رئيس .

خسارة الموقع الأكثر تحصيناً

ثرى لو أن النائب رفض منصب نائب الرئيس وبقي في المخابرات العامة، هل كان المجلس العسكري يزيحه من منصب مدير المخابرات العامة بالسرعة التي أراحه بها من منصب نائب الرئيس؟

بالطبع كان الأمر سيأخذ بعض الوقت وكان الصراع مع المجلس العسكري سيتخذ صورة أخرى مفيدة للثورة بطريقة أو بأخرى، فقد كان التنافس بين جهاز المخابرات العامة ودولته التي هي دولة داخل الدولة ، وبين القوات المسلحة كفيلاً بأن يسرب أو يمرر للثورة بعض ما ينفعها وبعض ما يحفظها مما حاق بها على يد القوة الوحيدة أو القطب الأوحده في موازين القوى في ذلك الوقت.

تعجل النائب بقبول منصب نائب الرئيس في وجود الرئيس ظناً منه أن نائب الرئيس خطوة للخلافة ، بينما أنها في مثل هذه الظروف لا يمكن أن تكون خطوة للخلافة.

لم أكن مفتوناً كالناس

ليس سرّاً أنني لم أكن من المفتونين بالنائب ولا حتى من المعجبين به رغم أنه كان يملك عوامل الدفع إلى الافتتان والإعجاب على نطاق واسع، وكان كل من يحيطون بمواقع نشاطي بلا استثناء (أو فلنقل كل من أعرفهم) يرون فيه شيئاً كبيراً إلا إياي، فقد كنت أتوقع ما حدث له بالضبط ، وبلغ الأمر في ثقتي بحكمي هذا عليه أنني أدليت بحديث لجريدة نهضة مصر ، وقد نُشر من باب المصادفة قبل الثورة بشهر أو أكثر ، وقلت فيه إن الذي سيخلف مبارك هو المشير وليس مدير المخابرات ولا الابن ، ولا رئيس مجلس الوزراء ، ولا رئيس مجلس الشعب ، و لا رئيس مجلس الشورى ولا رئيس الديوان.

و كان كثيرون يتعجبون من هذا الرأي الذي كنت أدلي به كثيراً ، فكنت أقول لهم إن القوة التي على الأرض للمشير، وقيمة نائب الرئيس أو رئيس المخابرات أو ابن الرئيس تنتهي مع الرئيس لكن الجميع بلا استثناء كانوا يعتقدون أنني لا أعرف ما يعرفون؛ لأنني كنت في أقصى تقدير قريباً من المطبخ ولم أكن في المطبخ كما كانوا هم فيه .

و في ظل ما شاع من اعتراضات من يسمعون عن رأيي هذا ، كنت ألتقي بكثيرين يحرصون على أن يفتحوا النقاش معي لينبهوني إلى ما يظنونني غافلاً عنه من

ترتيبات النائب أو ترتيبات لجنة السياسات .. وكنت على عادتي أروي لهم بعض القصص التي تقرب لهم رأيي:

مبررات التحفظ على الأداء

- كنت أقول إن بعض السيدات لا يطبخن، ولا يستطعن الطبخ لكنهن يضقن على الطبخ حرف الميم صرفاً وطبخاً حين يستطعن الطبخ، بأن يشرفن على الطبخ فيخرجن أو ينتجن وجبات ممتازة، وإن أبناء الطبقة القديمة في مصر يصفون أداء مثل هذه السيدة بالقول بأن نفسها في الطبخ، و من المتفق عليه أن الطباخ الماهر مهما بلغت مهارته لا يستطيع أن يتم الطبخ بدون هذا النفس، فإذا افتقد النفس خرج الطبخ عادياً، وكأنه طيبخ في مطعم المستشفى أو مطعم المدينة الجامعية أو في ميز الضباط، وكان المستمعون يضحكون ويستمتعون .
- كنت أقول إن مبارك كان يعرف أن النائب أكفأ عسكرياً من المشير، لكنه فضل المشير لسبب آخر يفتقده النائب ويحبه مبارك، وهو ذلك الاتزان في الأداء العاطفي، وقد كانت حظوظ المشير من هذا الاتزان في عواطفه يفوق حظ النائب بمراحل.
- سألت أحد الأطباء القريبيين جداً من النائب عن حقيقة معاملة المشير للنائب، باعتبار هذا الزميل كان من الضباط الأطباء وانتدب للمخابرات، فحكى لي مجموعة مواقف أبرزها أنهم في أزمة من الأزمات انتهوا منها قبل أن يأتي فريق المخابرات، فقال المشير ما معناه : بلغوا اللواء أن الحريق أطفئ ولا داعي لإرسال معونته (اللواء .. هكذا كانت رتبته التي اختارها المشير لوصفه، وليس البك، وليس الوزير).
- كان المشير من مواليد ١٩٣٥ وتخرج في ١٩٥٦، أما النائب فقد كان من مواليد ١٩٣٦ وتخرج في ١٩٥٥، وفي المناصب القيادية من هذا الوزن؛ فإن شهادة الميلاد لها قيمة أكبر من شهادة الكلية الحربية، وهذا هو ما حدث مع الرئيس مبارك نفسه الذي كان من أكبر أبناء دفعته سنّاً، وكان هناك كثيرون من مواليد السنوات التالية لمولده تخرجوا قبله في الكلية الحربية.

■ بل إن هذا نفسه هو ما حدث بعد ذلك في حالات معروفة .

وهكذا حدث ما حدث وأصبح النائب خارج الصورة تمامًا في الوقت الذي بعدت الثورة عنه !

أصبح المشير هو الأمر الناهي، وظل هو الأمر الناهي وكان من اتزان الذي زادت السنوات صقلا لا يصور الثورة إلا على أنها كرة نار سقطت في حجره ولا بد أن يتعامل معها بالجدية التي تمنع انتشار الحريق .. هكذا كان يقول.

لكن النائب الطامح إلى منصب الرياسة أصبح فجأة متقاعدًا فلم يبين حزبًا علنيًا يستوعب به مؤيديه ومعجبيه وتلاميذه ومنتظريه ، مع أن الفرصة كانت متاحة أمامه، وإنما أثر أن ينتظر حتى تناديه الجماهير، ويبدو أنه لم يكن يعرف أن الجماهير لا تنادي من تلقاء نفسها .. وأنه ظل معتقدًا في صواب ما يقوله له أصحاب المصلحة في دفعه للترشح .

غفلة الساسة عن أن يؤسسوا أحزابهم

استطرد هنا لأقول إن هذا كان هو حال الفريق أيضا ، فإنه لم يبين حزبًا علنيًا يستوعب به مؤيديه ومعجبيه وتلاميذه ومنتظريه ، مع أن الفرصة كانت متاحة أمامه.

بل الأدهى والأمر من هذين المثليين هو أن عمرو موسى لم يبين حزبًا علنيًا يستوعب به مؤيديه ومعجبيه وتلاميذه ومنتظريه، مع أن الفرصة كانت متاحة أمامه.

بل إن الأدهى والأمر من هذه الأمثلة الثلاثة هو أن محمد البرادعي القادم من خارج دائرة مبارك والمبشر بالديموقراطية و التعددية والتنافسية والصندوق لم يبين حزبًا علنيًا يستوعب به مؤيديه ومعجبيه وتلاميذه ومنتظريه مع أن الفرصة كانت متاحة أمامه.

أما غاية الأمر وأقصاه ومنتهاه في هذه الدواهي المعبرة ، فهو أن أكثر الناس حاجة إلى استعراض وتنظيم قواعده الجماهيرية بعد خروجه من الإخوان المسلمين وهو عبد المنعم أبو الفتوح لم يبين حزبًا علنيًا يستوعب به مؤيديه ومعجبيه وتلاميذه

ومنتظرية ، مع أن الفرصة كانت متاحة أمامه. ولا تقل لي إنه أدرك هذه الحقيقة مؤخرا حين أسس حزب مصر القوية فقد أدركها بعد فوات الأوان بوقت طويل .

ولهذا كله لك لم أكن مندهشا من وقفة من وقفوا مع مشروع الانقلاب من هذه الأسماء التي قدمت على أنها أسماء كبيرة إذ أنهم في حقيقة الأمر ليسوا أصحاب مشروع وإنما أقرب إلى أن يكونوا (مع كل الاحترام) طلاب وظائف رئاسية .

الاعتذار اليوم والترشح غدا

و أعود إلى النائب لأذكر القراء بأنه لما جاء وقت الترشيح ظهر النائب ليعتذر ذات يوم ثم ليرشح في اليوم التالي، وكأنه يترشح بناء على طلب الجماهير ، مع أن طلب الجماهير هذا لا يكون إلا في أفلام السينما ، لكنه فعل.

وفي الروايات المتاحة يُجمع من كانوا قريبين من المشير ومن النائب على أنه سأل المشير رأيه ، فقال له المشير بصراحة : إن الزمن ليس زماننا ... وإنما كبرنا خلاص.

ومع هذا، فقد تقدم النائب وكأنه لا يعرف أن هناك قرارًا [سياديًا] برفض ترشيحه، وأن هناك قرارًا [أعلى] باختفائه من الساحة السياسية.

وعلى حين كان القرار الأول يصادف نوعًا من التصديق المنطقي؛ فإن القرار الثاني لم يكن يصادف أي نوع من المنطق البشري .

وأقول بكل وضوح و لست أبالغ : إن كثيرين من الصحفيين لا يزالون ينتظرون النائب أو ينتظرون ظهوره ، وبعضهم لا يزال (حتى الآن) على هذا الأمل أو الظن.

ونعود إلى اليوم الفاصل بين اعتذار النائب وترشيحه ثم الأيام الفاصلة بين ترشيحه وشطبه ؛ وقد شطب اسمه كما هو معلن لأن الأصوات المزكية له في محافظة أسيوط كانت أقل من الحد الأدنى المطلوب من كل محافظة.

قرأت بيان النائب عن ترشحه فعرفت كاتبه من مفرداته وأسلوبه ولست في حل هنا من ذكر اسمه فاتصلت به على الفور وقلت له : إن البيان كتابته جيدة لكن

موضوعه سيئ ، ففزع فزعة خفيفة للوهلة الأولى ثم قال لما أفاق : ماذا تقصد؟ ، فأجبت بصراحة ، ففزع أكثر ، وأردف بسرعة إنه رجل وطني، وإنه يظن أنني لا تربطني به (أي بالنائب شخصيا) إلا علاقات الاحترام.

قلت : هذا صحيح فهو يستحق الاحترام ، لكنه انساق إلى أسوأ نوع من الأداء.

قال صديقي الكبير: اسمح لي يا دكتور محمد أن أقول لك إن هذه أول مرة أسمع فيها مثل هذا الحكم القاسي على مثل هذا الرجل العظيم.

قلت له: وربما آخر مرة فليس في حياته مواقف تستدعي مثل هذا الهجوم.

قال: عجبا، فكيف تقول هذا؟

قلت: لأنه ليس في حياته مواقف تستحق الاحترام الكبير و الحقيقي.

قال وهو يحاول أن يشجيني بنعومة على الاستطراد المفيد : نحن يا دكتور مهما بلغنا من العلم لا نصل إلى بحورك ، فقل لي ماذا تقصد؟

بدأت فحللت له بطريقة "مخابراتية" أداء النائب طيلة السنوات الممتدة التي لم يحظ غيره فيها بمنصبه في رئاسة مخابرات وطنه.

وقد تعمدت أن يكون تحليلي بطريقة تعلي من "قيم المخابرات" الحقيقية من ضمان الأمن القومي بمعانيه المختلفة، وبناء حائط الصد، واختراق ما ينبغي اختراقه، وتهذيب أو ضبط التعاملات مع الأعداء والأصدقاء والجيران على حد سواء، وتنمية الوعي بسيادة الوطن وأمنه وحدوده وعلاقاته، وتأمين حاجات المواطن والمؤسسات وضمن أكبر قدر من الانضباط الكفيل بعدم تحلل القيم أو انهيار مؤسسات المجتمع ... إلخ

وللأسف ومع الأسف ، فقد كان تقييمي لأداء النائب في هذه الميادين أنه أقل من الحدود التي أتصورها لدرجات النجاح.

ومن الإنصاف أن أقول إن صديقي الكبير شاركني رأبي في كثير من هذه الجزئيات ، بل إنه كان يسارع في بعضها إلى أن يعطي أداء النائب صفرًا من ١٠ .

ثم قال صديقي الكبير : فماذا بقي من النائب إذا بعد هذا التشريح القاسي .

قلت: رئاسة معقولة ومنضبطة لجهاز يحتاج رئاسة معقولة ومنضبطة.

قال: وهل يساوي هذا أن يبقى في منصبه كل هذا الوقت.

قلت: بمنطق الرئيس مبارك وبمنطق الشخصيات المتاحة في هذا الجيل يستحق.

أليس أحسن من غيره؟

كان صديقي من الذكاء النظري بحيث سألني مباشرة : أليس النائب أحسن من أي عسكري آخر متاح من طراز الفريق أو الطرز الأخرى المرشحة.

قلت: هو أحسن بلا شك.

قال: ألا يستحق أحسن الوحشين تأييدًا.

قلت: لكن إن كان هناك مدنيون ، فإنني أفضل أيهم بل حتى أسوأهم على أحسن الوحشين هؤلاء.

و بأسى شديد قال صديقي: عندك حق.

قلت: إن مصلحة الجيش أن يأتي رئيس مدني.

قال: لقد عرفت من أكثر من مصدر أنهم في القوات المسلحة بلغتهم كلمتك هذه، ولا شك في أن هناك من بينهم أنصارًا لك يؤيدونها بشدة.

قلت: لا أعلم عن هذا ، قال: وهم يعلمون أنك لا تعلم.

فلم أشأ أن أسأله عن تفصيل ما وصل إليه، ذلك أن أي سؤال سيفل من قيمة الفكرة، وأزعم أنني كنت على حق.

قال صديقي: وما احتمالات فوز السيد النائب ؟

قلت: لا تزيد عن صفر في المائة.

صعق وقال إن له أنصارًا كثيرين وأردف : أنا مثلاً سأعطيه صوتي.

قلت: يا أستاذنا أنت سألتني عن احتمالات فوزه لا عن نسبة الأصوات التي سيحوزها.

قال وهو يضحك ، جامعا بين السخرية الشديدة والإعجاب الذي لا بد منه : نسيت ما رويته لي ذات مرة من أنك كنت الأول في الثانوية العامة في فرع الاحتمالات من مادة الرياضيات الحديثة ، ومع ذلك دخلت الطب وتخرجت في الطب ، وتدرجت في مناصب الجامعة لتكون أستاذًا للعلوم السياسية ، وتقطع علينا أكل عيشنا.

قلت: يا أستاذنا أنت كتبت البيان للرجل بناء على طلبه، وقلت له: إن هذا شرف! فأرجوك في المكالمة التالية أن تقول له: إنه أكبر من هذا.

قال صديقي: هذه جملة لا أقولها ... ولن أقولها ولا حتى منسوبة إليك.

قلت: إذاً سيقولها له المجلس العسكري بطريقة غير مباشرة .

وقد كان ما كان على نحو ما عرف كل انسان .

الفصل الثاني

مقدمة من مقام النهاوند لقصة الفريق

نبدأ بأن نذكر للقارئ أن نهاوند مدينة فارسية وقعت بالقرب منها معركة نهاوند في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، و انتهى وجود الدولة الساسانية في هذه المعركة بانتصار المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن الذي جمع الحسينيين فنال النصر والشهادة معا ، وكان هذا القائد أبرز نموذج للجمع بين الحسينيين في معركة واحدة ، أما مقام النهاوند الموسيقي فمقام صالح للفرح كما أنه صالح للحزن وليس أدل على هذا من أنه هو المقام الذي تغني به الفنانة أسمهان أغنيتها المرححة الراقصة ليالي الأونس في فيينا كما أنه هو نفسه المقام الذي يغني منه شقيقها الفنان فريد الطرش أغنيته الحزينة " كلمة عتاب " .

افتعالات تاريخية

وننتقل إلى ترشيح الفريق لرئاسة الجمهورية الذي كان بمثابة خاتمة لسلسلة شائقة وشائكة من صراع المغامرات والتدخلات، وربما كانت هذه الجملة تلخيصاً لعملية معقدة وطويلة من حوادث وافتعالات تاريخية.

نعم أنا اقصد هذا اللفظ : افتعالات تاريخية ، لأنها لم تكن فعلاً ولا رد فعل ، وإنما كانت محاولة يائسة لصنع فعل بعد فوات الأوان.

وربما تعود قصة الفريق مع السلطة إلى مرحلة مبكرة عن ثورة ٢٥ يناير. وفي البداية فقد كان تعيين الفريق في منصب وزير الطيران على عكس ما يبدو من منطقيته وروتينيته أمراً مخالفاً لكل ما درج عليه مبارك نفسه من تلمس لأسباب النجاح ، و ربما لا يعرف الناس أن مبارك كان هو صاحب الفضل في اختيار محمد فهيم ريان رئيساً لمجلس إدارة شركة مصر للطيران في عهد السادات، وهو المنصب الذي استمر فيه فهيم ريان حتى جاء الفريق وزيراً للطيران المدني.

كانت وجهة نظر مبارك قريبة من وجهة نظر الحضارة الحديثة في التعامل مع مؤسسة الطيران (أيا ما كان اسمها) على أنها مؤسسة "نقل" تخضع لاقتصاديات النقل ولإداريات النقل ولأمنيات النقل ولتبعات النقل ولتعقبات ومعقبات وعقبات وعواقب النقل بعيدًا عن شمخة الطيران وجاذبية الطيران وسحر الطيران وخصوصية الطيران، ولولا أن مبارك كان يؤمن بأن "النقل" هو طابع الطيران المدني ما استطاع النجاح في هذه المهمة الإشرافية العليا عليه التي أسندها إليه السادات وهو نائب لرئيس الجمهورية.

وهكذا اختار مبارك أفضل مهندس طيران في ذلك الجيل وهو الجيل الذي عمل فيه، وهو محمد فهيم ريان بجديته ومهارته ودأبه بل ببطولته السابقة .

وتطور الأمر في الطيران الذي كان يُضم مع السياحة في وزارة واحدة بوزير واحد بحكم "المجاورة المتخيلة أو اللازمة" عند رؤساء الوزراء المصريين، تطور الأمر إلى أن عاد النقل إلى مساره الطبيعي مع وزارة النقل والنقل البحري، وهكذا أصبحت حقيبة الطيران في وزارة عاطف صدقي الأخيرة في عهدة سليمان متولي وزير النقل والمواصلات العتيد الذي تولى هذه المسئولية منذ عهد وزارة السادات الأخيرة في مايو ١٩٨٠. هكذا كانت الصورة متمثلة في إشراف سليمان متولي وهو مهندس عسكري شأنه شأن محمد فهيم ريان، وهو إشراف خفيف لا يعنى بإثبات نفوذ ولا عبقرية.

التخريب بحسن نية

فلما جاء عاطف عبيد لرئاسة الوزارة في ١٩٩٩ اختار أن يقسم اختصاصات سليمان متولي (الذي لم يدخل وزارته) على وزيرين : إبراهيم الدميري للنقل ، وأحمد نظيف للاتصالات، ويومها كتبت (بل صرّخت) بأن هذا خطأ كبير ستدفع مصر ثمنه (وقد دفعت بالفعل أثمانًا مضاعفة أكثر مما كان أي أحد يتصور).

كانت وجهة نظري المتواضعة التي اقتنع بها كثيرون ممن سألوني من مستويات مختلفة هي أن من المفروض أن قطاع الاتصالات يمول قطاع النقل ، وأن المؤتمر الاقتصادي الذي عقد في بداية عهد الرئيس مبارك نفسه أوصى بهذا توصية صريحة

واضحة، وهي توصية لم تكن غريبة على عقلية الأفاضل الذين تولوا رئاسة ذلك المؤتمر، وكانوا يعرفون طبيعة الاقتصاد المصري والمشكلات التنموية المصرية على نحو جيد.

وبناء على هذا فإنه لا يستقيم أن يقف " إبراهيم الدميري" وزير النقل كل يوم أمام أحمد نظيف وزير الاتصالات ليطلب منه تمويلاً لشراء قاطرة أو إصلاح طريق.

كان الأساتذة الصحفيون والكتاب والساسة يستمعون إلى هذا الذي أشرحه فيعجبون من أن تكون مقاربة المشكلات المصرية متاحة على هذا النحو الذكي والمتكامل الذي يوفر عناء كبيراً.

كانوا يقتنعون وكانوا يضيفون من خبراتهم المتراكمة إلى ما شرحته أن النتيجة التي لن تظهر إلا بعد عام أو عامين أن وزارة الاتصالات ستمضي في إنفاق سفهي ومظهري وأن مرفق النقل البري والبحري والجوي سيبدأ في التدهور.

الأسلوب الأمثل

وأذكر أن أحد كبار المسؤولين طلبني وسألني بكل وضوح ما هو الأسلوب الأمثل لإجبار الاتصالات على تمويل مباشر للنقل وهل هذا ممكن بعيداً عن المالية والتخطيط؟ أي بعيداً عن وضع ذلك في خطة الدولة (التي وضعتها وزارة التخطيط) ووزارة المالية إلى أرقام واعتمادات، فقلت لذلك المسئول الكبير جداً: نعم ممكن من خلال آليات كثيرة منها أن تدفع وزارة الاتصالات إيجاراً كبيراً جداً لمكاتبها الموجودة في محطة السكك الحديدية أو في منشآت تابعة للنقل، أو لأعمدة التليفونات السائرة بحذاء السكك الحديدية في حرم السكك الحديدية .. أو للمخازن التي خصصتها السكك الحديدية في أراضيها لآلات وأسلاك وعدد مصلحة التليفونات ... إلخ.

وسألني المسئول الكبير جداً جداً، وهو معجب بهذا الأسلوب، هل النقل أقدم من المواصلات وتعجب حين أجبتته بالحقيقة وهي أن وزارة المواصلات وجدت منذ ١٩١٣ لكن وزارة النقل لم توجد إلا في ١٩٦٤، وأن كل ما هو تابع للنقل كان تابعاً للمواصلات.

مرة ثانية هاتفني بطريق غير مباشر وسألني وهو ضاحك عن تسمية وزارة الاتصالات ، وهل حقاً أنني الذي سميتها هكذا؟ ففهمت من الضحكة الخفيفة أن بعض من ناقشهم المسئول الكبير جدا جداً أشاروا له أنني أنا نفسي الذي أدخلت كلمة "الاتصالات" بدلا من المواصلات، في مقترحاتي المتعلقة بالوزارات ، وبثقة شديدة، بدأت من هذه النقطة شارحاً الفروق بين الاتصالات والمواصلات والنقل والعقلية الإدارية السوفيتية والبريطانية والغربية.

لكني أحسست من المناقشات أو من الأسئلة أن الامور قد تعقدت بما سيصيب قطاعات التنمية المصري في مقتل ، وبخاصة بعد أن تطورت الدنيا تطورا طوريا (أو أسيا) فاق الحد مع انتشار المحمول وأصبحت الدخول المتحققة أو الممكن تحقيقها من قطاع الاتصالات مائة ضعف الدخول القديمة، على حين لم تزد دخول قطاع النقل بل على العكس ، فإن أعباءه هي التي تضاعفت مع زيادة وسائل الأمان وضرائب الأمان وتكاليف التأمين والتشغيل وارتفاعات أسعار الطاقة.

الاقتصاد يتغير

كنت من ناحية أخرى قد أدركت من متابعة الأخبار والأحداث العالمية مدى المعاناة المضاعفة التي بدأت شركات الطيران العالمية تعانيها ، حتى إن بعض هذه الشركات الكبرى التي كانت (بلا مبالغة) بمثابة دول أعلنت إفلاسها أو اندماجها في شركات أخرى أكبر منها لها ملاءة مالية واسعة وقادرة على الوفاء بمتطلبات التطوير ، بل بمتطلبات استمرار التشغيل.

جاء حادث الطائرة المصرية التي سقطت في المحيط ١٩٩٩ فوضعت يدي على قلبي ، لما كنت أعرفه من أنها ستكون فرصة معروفة أو معهودة لتشغيل الأسطوانة المعهودة في مثل هذه الحالات ، وهي ضرورة وجود وزارة للطيران المدني، و كنت أتوقع أيضا أن الوزير الذي سيعين وزيراً للطيران المدني إن عادت هذه الوزارة إلى الاستقلال بوزير سيكون هو ذلك الفريق الذي كان ترشحه الشائعات ليكون نائباً لرئيس الجمهورية باعتباره مقرباً من الرئيس مبارك.

وكنت أعرف من خبرتي و مناقشاتي السابقة في الأوساط العالية أن الرئيس مبارك لا يميل إلى هذه الآراء الصحفية التقليدية السطحية من قبيل إنشاء وزارة وإلغاء وزارة إلخ، لكنه ، كعادته، لم يكن يصرح بهذا لكيلا يكون هو نفسه جزءاً من النقاش ولكيلا يقفل على نفسه باباً من أبواب رحمة الاقتراحات أو الحلول الاضطرارية في وقت ما.

تطور الأمر كما تتطور الكارثة على نحو متدافع وحدث حادث لقطار في السكك الحديدية وأصبح من المحتم أن يُضحى بوزير النقل لأن وجوده أصبح غير ذي موضوع .

وسرعان ما صدق حدسي بأن الرئيس سيختار لقطاع النقل إدارياً مثابراً من الذين يقتلون أنفسهم في العمل وستكون النتيجة أن يموت هذا الوزير في العمل فيصبح شهيد وزارة النقل .

حدث ما خشيته

كان الصحفيون يضحكون من التعبير، لكن ما توقعته حدث للأسف بالحرف الواحد. اختار الرئيس لمنصب وزير النقل وزيراً جاداً نسي الناس اسمه الآن رغم استشهاده في القطاع ، كان هو حمدي الشايب وهو مهندس مجتهد جداً في قطاع البترول في شركة كان أحد أقرب الناس من مبارك يعمل فيها، وتصوري أنه سمع من هذا القريب المقرب أحكامه على من في الشركة من كبار المديرين ووجد ضالته في حمدي الشايب، وزاد من فرص الشايب أنه منوفي فلاح جاد.

وجاء المهندس حمدي الشايب وزيراً للنقل مضحياً بدخل وزارة البترول ومستقبله فيها .. وتوفي الشايب بأزمة قلبية على نحو ما توقعت تماماً.

تكاثرت التثرثرات الداعية إلى قدوم الفريق للوزارة و بدأت ترفع صوتها وكنت على يقين أن الفريق سيؤذي نفسه وسيؤذي قطاع الطيران. وهذا حديث آخر .

الفصل الثالث

الحن الحزين في وصف وزارة الفريق

ما إن استقر الأمر ظاهرياً للمجلس العسكري إلا ونجح في أول إجراء يستند إلى عملاء الخدمة السرية من الكتبة المصنوعين تماماً على عين الأجهزة ، و كان هذا الإجراء " الثوري" المختار بعناية هو الخلاص من القلق الناشئ عن وجود الفريق وكثرة كلامه بالخلاص من وجوده في موقع رئاسة الوزارة .

و كان تحقيق هذا الهدف التكتيكي سهلاً جداً في ظل شيق الفريق الواضح بالإعلام وهو شيق كفيل بقتل أي إنسان بطلقة خرطوش واحدة .

مهارة الانتقال

و ربما يقتضينا هذا أن نعود للقصة من قبل الثورة بسنوات قليلة ، ففيما قبل ثورة ٢٥ يناير بشهور كانت وجهة نظري المعلنة في الفضائيات (وليست المقتصرة على النوادي السياسية) أن من حق الفريق أن يطلب المناصب والجاه والنفوذ وأنه لا بأس في أن يواصل إعداد نفسه إعلامياً و دعائياً لدور سياسي قادم، لكن من حق الوطن على من يختاره رئيس الدولة لمثل هذا الدور أن يخرج للعمل سفيراً ليرى العالم الغربي عن قرب ، وليطور من عقلية "الميز" إلى عقلية أخرى تتعامل مع الحياة المفتوحة في مجتمعات حديثة في زمن أصبح من الصعب على العسكريين أن يفهموه من أعلى.

ومن العجيب أنني على ما قد لا يصدق الناس وجدت نفسي وقد تأثرت وتشنجت وبكيت بعد هذه الواقعة بعشر سنوات ، حين رأيت على الطبيعة حدود عقل وإدراك الفريق في السياسة قبيل ترشيحه لرئاسة الجمهورية وبعد إقالته من رئاسة الوزارة بفترة ، حيث وجدته يقول في حوار جاد جداً: "إن البلد باظت" من يوم وفاة جمال عبد الناصر، ولا بد من العودة بها إلى أيام جمال عبد الناصر.

يومها أحسست أننا قد نمضي في طريق كوريا الشمالية بأسرع مما يتصور أي إنسان.. و يومها بعد أن بكيت وانزاح عن صدري بعض الهم بذلك البكاء، بدأت أفكر في أن الهجرة أصبحت ضرورية و واجبة رغم تقديمي في السن و تدهور صحتي !!

أعود إلى مطلع الألفية حين تطورت الامور وأصبح الفريق وزيرًا للطيران المدني قادمًا من قيادة القوات الجوية مباشرة. حضرت عشاء في ذلك اليوم فسمعت أحد الزملاء العاقلين يتوقع بدء عصر التطويرات المظهرية المهمة والمكلفة في الوقت نفسه ، فقلت : إن كل ما بناه فهيم ريان من انضباط وبنية أساسية سينهار ، وإنما سندخل عصر تشييد مبنى مكيف لكنه يفتقد أساسيات تفكير "السوفت وير" ، فلا يتناسب فيه عدد الشبابيك والكاونترات والسيور والناقلات مثلا مع ضغط التشغيل ولا مع معدلاته ولا مع مستوى التميز في الخدمات ... إلخ. وقد حدث.

وقلت إننا سندخل عصر انتشار الضباط المتقاعدين في المطار مع ما سيتسبب عن هذا من سهولة اللجوء الى قرارات تكون نتيجتها وبالآ على مبنى المطار ومحيطه بسبب تعطيل حركته وإغلاق أبوابه.

قلت إننا سنشهد إضرابات و اضطرابات بين الطيارين والمضيفات والعاملين في المكاتب الخارجية.

قلت: ستضيع أملاك مصر للطيران في الخارج ، وبخاصة مكاتبها الواقعة في أماكن متميزة اشتراها طلعت حرب باشا في أيام العز (وأكل الوز كما يقول التعبير الشعبي).

نصيحة ذهبية

قال لي واحد من أساتذتنا الصحفيين الذي سمع توقعاتي وكان يحبني حبًا جمًّا، يا دكتور محمد من الواضح أنك لا تكره الفريق ، وإنما تكره له هذا الموضع بهذه الطريقة وبهذه النقلة، بدليل أنك كنت تريده سفيرًا في لندن أو واشنطن .. لكن الذي لا يعرفك ويسمع ما قلت الآن سيظن أنك كنت تريد أن تكون أنت وزيرًا للطيران ،

مع أن هذا غير وارد ، أو يظن على الأقل أن صديقاً لك كان ينتظر المنصب، وكنت تنتظره له، أو كأنك رشحت لصاحب القرار من فاته قطار المطار وضحك وسرعان ما أردف (ناصحا بصدق) ، فأرجوك أن تجعل ما قلته هو الفقرة الثانية من أي حديث صحفي معك في هذا الموضوع وأن تجعل الفقرة الأولى هي ما تتوقعه من إجابيات يمكن أن تتحقق على يد الفريق .

كانت النصيحة غالية وذهبية من أستاذ مخلص يتمنى لهذا السياسي الواعد تأثيراً في مجريات الأمور في بلده.

بعد أن التقط أستاذنا نفسه قال: يا دكتور محمد حاول أن تبحث بتفكيرك عن إجابيات يمكن أن يحققها الفريق في الطيران المدني واذكرها، وليس ضرورياً أن تقولها الآن إذا لم تكن مستعداً. قلت له بالعكس: أنا مستعد.

قال: هذا دليل على أنك إنسان منصف، فتنفضل ونحن نسمع لك، قلت إن الفريق سيكون قادراً على تفتيت إيجابي لمصر للطيران ، وما إن نطقت الكلمة حتى استبشر المستمعون، وقال بعضهم إنه يسمع هذا المصطلح لأول مرة، لكنه جميل.

وبدأت أشرح أن الفريق لن ينتظر حتى يسمع عن كل شيء في مصر للطيران من شخص واحد هو رئيسها لكنه سيجد أن الحل العملي هو أن يحول قطاعاتها إلى شركات مستقلة ، وأن تكون مصر للطيران بمثابة شركة الشركات أي شركة قابضة

ترك الحاضرون الطعام وبدأوا ينصتون إلى ما أقول. قال المحبون للفريق: لو فعل هذا لكفاه، وهو قادر على أن يفعله. وقال الكارهون للفريق: هل تظنه يفهم هذا؟

قلت ردّاً على هؤلاء الكارهين إن هذا هو الدواء الوحيد وليس مطلوباً من المريض أن يصف الدواء لنفسه ولا أن يبحث عنه في مراجع الطب لكن الدكتور يختار الدواء وعلى المريض الالتزام به إذا أراد الشفاء.. وأظن الحالة لا تخرج عن هذا.

قطع علينا أكثرنا شبابا الاستمرار في هذا الحديث الذي بدا للجميع شيقا وقال: يا دكتور وظف مهاراتك لخدمة اسمك واكتب أفكارك هذه في مقالات مبسطة كما كنت تفعل.

قلت إن بعض المقالات يأتي بأثر عكسي ويتكبر الوزراء أن ينفذوا أفكار غيرهم.
هنا عاد أستاذنا الكبير إلى إدارة الحوار وقال : لا تسرف في تقدير قيمتهم، أنت أكبر منهم جميعًا، اكتب للتاريخ وليس للحاضر.

مقال : مطار جديد في مدينة ٦ أكتوبر

وبدأت بالفعل فكتبت مقالًا بعنوان حاجتنا إلى مطار جديد في مدينة ٦ أكتوبر
أبرزته جريدة الأخبار بطريقة جميلة في المكان الأول بين مقالات صفحة الرأي.

ذهبت الكلية فلما حان اجتماع مجلس القسم في ذلك اليوم طلب منا أستاذنا العظيم
الدكتور لطفي، عليه رحمة الله، أن نستمع إلى شيء سيقوله متواصلًا بدون أن
نعترض سيل الحديث ، ولم يكن هذا من عادته ، وإذا به يقرأ المقال كاملاً من الذاكرة
بعدها استظهره بالأمس ، فلما انتهى سأله بعض زملائي الأكبر مني : هل هذا مقال
لمحمد، قال نعم. قالوا (في حب ظاهر): هل يستحق وهو [العاق] أن تستظهر مقالاته
على هذا النحو . قال: أمر الله.

ثم أخذ أستاذي وزملائي ، وكلهم من أصحاب العقليات المتميزة ، يتداولون في
أمور التخطيط والتنمية بجدية وحماس واستنارة وأنا صامت تماما . لكنني أصبحت
على يقين في تلك اللحظة في مطلع الألفية أن الثورة قادمة .

نعود الآن إلى سياق الحديث الذي ذهب بنا إلى النقل والمواصلات والطيران ،
وهي نفسها الموضوعات التي تمثل ميادين الثورة الكبرى في عالمنا المعاصر .

القرار الخاطئ

بعدها مرت السنوات وأصبح الفريق على وشك إتمام خطوات الترشح لرئاسة
الجمهورية ، إذا بالناس يجدونني أصرح علنًا في فضائية من الفضائيات أن قرار
الفريق قرار خاطئ حتى وإن انتخب رئيسًا بالفعل ، وأنه لم "يرتكب" هذا القرار
الخاطئ إلا بعد وفاة الملاك الحارس الذي كان يحميه من الاستجابة لمثل هذه الدعوة
إلى الترشح، وإذا بأحد الأصدقاء الأعزاء الذين كانوا في غرفة العمليات الانتخابية

للفريق يهاتفني على الفور وهو منزوع أشد الانزعاج أن يصدر مثل هذا التعبير عني !!، وأن الناس لم تتعود مني هذه المواقف! ، وكيف أخلط بين وفاة زوجته وترشحه ... وأبني مثل هذا الزعم.

انتظرت حتى انتهى صاحبي من كلامه، قلت: هل تظنني أفعل مثل هذا من تلقاء نفسي، إن الفريق نفسه هو الذي قال هذا لفلان في حوار المنشور في جريدة كذا من أسبوعين !

سرعان ما تركني صديقي معتذراً بطارئ ، وبعد عشر دقائق كان يعتذر لي لأنه وجد الفريق نفسه قد قال هذا الكلام.

كانت السيدة عزة زوجة الفريق ابنة لمحمد محمد توفيق عبدالفتاح وهو وزير سابق للشئون الاجتماعية (١٩٥٨) وسفير سابق بعد ذلك، وكان من دفعة تالية لدفعة المشير عبد الحكيم عامر، ومن الطريف أن توأم والدها أي عمها زكريا أصبح وزيراً هو الآخر في ١٩٧٥ أبريل مع ممدوح سالم، وظل وزيراً للتجارة طيلة وزارات ممدوح سالم الخمس.

سارت حملة الفريق على نحو ما يعرف كل الناس أنها سارت.

وجاء الموقف منها على خلاف كل ما هو متوقع.

كما جاء الموقف منها على خلاف كل ما هو شائع.

وهي على كل حال ليست سابقة نادرة في التاريخ.

■ فمن الشائع الآن أن القوات المسلحة كانت مع الفريق ، والحقيقة أن القوات المسلحة في عقلها الباطن كانت ضد الفريق على طول الخط (وليس لهذا علاقة بصندوق الانتخابات على كل حال) ، لكن القوات المسلحة فيما هو معلن من مواقفها لا تستطيع أن تقول إنها كانت ضد ابن من أبنائها، والإخوان المسلمون على الناحية الأخرى لا يقولون إن

القوات المسلحة كانت ضد الفريق، فهم لا يتوقعون هذا ولا يصدقونه ولا مصلحة لهم في ترديده.

■ ومن الشائع أن الفريق كان على وشك الفوز ، لكن الحقيقة أنه كان أبعد عن الفوز عما أظهرته النتائج المعتمدة ، فقد هناك أصواتاً كثيرة حسبت لشفيق (أو صبت عنده) على نحو أو آخر ، بينما هي لم تكن لشفيق أصلاً. لكن هذا كان هو الحل أو البديل الوحيد عند بعض من كانوا لا يريدون الإخوان ولا الإسلام على مستوى فردي .
ولأن هذه الحسابات تمت على مستوى فردي ، فمن المستحيل أن يثبتها أحد ومن المستحيل أن ييني عليها أحد.
لكن هذا حدث كثيراً وكثيراً جداً.

■ من الشائع ثالثاً أن الفريق كان يحظى بتأييد السلفيين، لكن الحقيقة أن حزباً واحداً ممن نسب إلى السلفيين، بدأ يناور الدولة العميقة بادعاء تأييده لشفيق، حرصاً على وجود الحزب نفسه، ولم يكن هذا الحزب قابلاً لشفيق لا سرّاً ولا علناً، لكنه كان سعيداً أن يوصف بأنه مع الفريق ليتجاوز بهذا الأزمة التي كان يراها قادمة لتعصف به. وكان هذا الحزب بمنطق سياسي براجماتي على صواب فيما فعل، وإن كان قد عانى من سقوط أخلاقي لم يكن قد تحسب له!
وهكذا و ... هكذا.

و أخيراً، فقد كان ترشيح الفريق لرئاسة الجمهورية بمثابة خاتمة لسلسلة شائكة وشائكة من صراع المغامرات والتدخلات، وربما كانت هذه الجملة تلخيصاً لعملية معقدة وطويلة من حوادث وافتعالات تاريخية.

الفصل الرابع

تنويعة لحنية على انترنت الثورة

كنت منذ مطلع القرن الحادي والعشرين أتوقع في مقالاتي ومناقشاتي وأبشر بأن تجليات عصر الإنترنت باتساعها تتطلب أجيالاً قادرة على التعامل مع المعلومات وأجيالاً أخرى قادرة على التعامل مع الحاسبات، لكني كنت أؤمن أن التعامل الجيد مع المعلومات هو الكفيل بإجادة التعامل مع الحاسبات ، وليس العكس ، لهذا كله كنت دائماً حريصاً على توكيد فكرة أن تكون الحاسبات مقترنة بالمعلومات بل بالمكتبات التي هي القسم العلمي الذي تدرج تحته الإسهامات الجديدة في الثقافة التي ستنشأ مصاحبة للإنترنت.

الفرق بين فهمنا و فهم المهندسين

كان فهمنا مختلفاً تمام الاختلاف عن فهم المهندسين وأساتذة الهندسة، وكان هذا سبباً غير معلن لتحفظهم على أفكارهم التي كانوا يظنونها جانحة إلى اليمين أو إلى الماضي، وكنت أعلم تمام العلم أنه من الصعب عليهم أن يتقبلوا فكرتي لأنهم يرون النهاية مختلفة، هم يرون أن ما سبق من العلوم أدى إلى ما عثروا عليه أخيراً في أنظمة المعلومات، بينما كنت أراها وسيلة إلى الوصول إلى بدايات أخرى للعلوم القديمة.

لا يزال هذا الاختلاف الفكري قائماً بيني وبينهم ، ولا أظن أن أحداً منهم بحكم مسار حياتهم العلمي والهندسي كان سيصدق يوماً ما أن عليه أن يعدل من فكره ليكون على نحو ما كنت أقول وأفعل.

لكن ثورة ٢٥ يناير جاءت لتثبت لهم بطريقة غير مباشرة أن الأمور ليست كما يظنون، وأنهم لا بد ان يعرفوا أن هناك حياة، وأن الهندسة تهندس هذه الحياة ، لكنها لا توجد، وأن الأنماط الهندسية (أو الأنساق المعلوماتية) التي تتخلق على أيديهم لا تفرض نظاماً ، وإنما قد تنظم ما هو موجود وقد لا تنظمه.

بلغة الهندسة : خروجًا على المؤلف

كانت ثورة ٢٥ يناير من منظور علوم الهندسة خروجًا على المؤلف بطريقة عشوائية غير محددة الهدف، لكنها كانت بمنظور المعلومات تأطيرًا لأفكار متأزرة من أجل خلق واقع جديد.

كان من السهل على محترفي الهندسة أن يعوقوا التأطير، لكنهم كانوا ولا يزالون عاجزين عن وضع تأطير بديل مقنع، ولو كانوا نجحوا في ذلك لوضعوه ويستوي في ذلك رؤساء الوزراء المهندسون المتعاقبون: أحمد نظيف، وعصام شرف، وهشام قنديل، وإبراهيم محلب، وشريف إسماعيل؛ ذلك أنك لا تجد في التوجهات الفلسفية المعلنة لهؤلاء جميعًا تناوُلًا جادًا للتعامل الأمثل مع الثورة بالمعلومات، وإنما تجد عودة إلى أسلوب البيروقراطية الذي يتحاور في المفردات و الجزئيات من أجل الوصول إلى الاستقرار أو السيطرة أو التوافق.

قصة توفير الحاسبات للشباب

كنت في نهاية القرن الماضي قد أطلقت في مقالات منشورة دعوات جادة لأن تعطي الدولة لكل طالب جهاز حاسب آلي ورسمت التدرج في هذه الخطة عامًا بعد عام حتى يصبح لكل طالب جهاز كمبيوتر خاص به، وعلى عادة الجيل السابق رحب الدكتور حسين كامل بهاء الدين بالفكرة مع ما جبل عليه ذلك الجيل من وضع الضوابط والتحفظات والقواعد بحيث تكون النتيجة أن يفقد الاقتراح الزخم وألا تحدث الثورة التي كنت أتصورها.

في مقابل هذا أخذ أحمد نظيف وهو يومها وزير الاتصالات الفكرة من منطق تجاري بحت هو التجارة في الكمبيوتر، وقد كانت أدواته البيروقراطية في وزارة الاتصالات تساعد، فهو لا يحتاج من الطالب إلى ضمان مالي وإنما يتمثل الضمان في خط التليفون الأرضي، وتقوم هيئة الاتصالات السلكية واللاسلكية (أي هيئة التليفونات) من خلال مكاتبها في السنترالات بالدعم اللوجستي المطلوب لبيع هذه الكمبيوترات وتحصيل أقساطها.

كان الصحفيون المسؤولون المطلعون على الصراعات الوزارية بيتسمون وهم يقولون لي : إنك صنعت العراك بين الوزيرين وتركتهما يتصارعان، وكنت أقول لا يهمني هذا ولا ذاك، لكن انتشار الكمبيوتر بأية صورة هو الذي سيغير كل شيء .. إن هذا الكمبيوتر الذي يدفع الفتى أفساطه اليوم سيكون مستهلكا تمامًا (كهنة) بعد عامين ، وربما لا يجد من يحمله من على الأرض، لكنه سيكون قد غيّر تمامًا من تعامل الشباب مع الحياة.

هل يصبح رأس المال متكونا من أفكار متطايرة

كان المثقفون الشيوعيون القدامى بيتسمون لأفكاري بعد مناقشات طويلة ، ويقولون :هل أنت الآن تريد وضع نظرية لرأس المال مع اختلاف رأس المال من أصول ثابتة إلى أفكار متطايرة، وكنت أقول لهم: لكني لن أكون صاحب إنجيل، فيقولون إذا كنت تؤمن بهذا الذي تسميه التطاير والإشعاع والتشيع فكيف يكون لك إنجيل؟ يكفيك ما كتبت من أنجيل.

بينما كان الشيوعيون ينتهتون من أن توجهي ليس معاديا، فقد كان هواة الأدب الخبثاء من الذين يجيدون تحقير الأمور الكبيرة يحاولون أن يستقزوني بكلمة الأرشيف ، وهو أنني معني بأن أدخل الأجيال القادمة عالم الأرشيف ، لكني كنت أرد عليهم ردًا حارقًا لم يتوقعوه، وهو أن الأرشيف أكبر بكثير من هذا الذي نفهمه ونحن في سبيلنا قد نعلم وقد لا نعلم ...

كانت كلمة الأرشيف لا تزال تواجه حطًا عائرًا بسبب ورودها في الأعمال الأدبية مقترنة بقسم كان ينفى إليه الموظفون ذوو الحظ العائر مع رؤسائهم، ولم يكن أحد حتى ذلك الوقت قادرا على أن يصدق أو أن يعرف أن الأرشيف هو أهم مظاهر الحضارة.

لانعرف قيمة الأرشيف

أذكر أننا كنا ، قبل الثورة بأعوام قليلة ، في عشاء محدود العدد ، وأن ناشرًا محترفًا حاول أن يتبسط معي بما كان المختلفون معي يثيرونه من اهتمامي المفرط

بضبط التواريخ وتوثيقها، وإذا بي بمنتهى الهدوء أصبح في هذا الرجل صياحًا شديدًا
كاد أن يبكيه بكل قسوة، بل ربما أبكاه.

قال لي أحد الأصدقاء يومها إن الرجل كان يجاملك ، ومن الواضح أنك كنت في
حالة هدوء نفسي ولم تكن مستنارًا بكلامه أو مستاءً منه ، وإنما انتهزت الفرصة
لفرض رأيك، فهل كنت تريد أن تؤدبنا جميعًا.

قلت: نعم لم أكن مستنارًا منه ، لكنني كنت أخشى على الفكرة أن تكون محل تهريج
واسترزاق وقتي فقط، وأن تنطبع في أذهانكم على هذا النحو ، ولو أنني لم أفعل هذا
كنت خائنا.

الثورة جد لا هزل فيه

في الحقيقة ، فإن ثوار ٢٥ يناير كانوا واعين متيقظين منتبهين، ولم يكونوا
مندفعين باستثارة مبيتة أو محددة، ولم يكن يهمهم أن يكون لهم كتاب كرأس المال،
لكنهم في الحقيقة كانوا في مثل موقفي مع صديقي الناشر الذي كان لا بد له أن يفهم
أن الثورة جد لا هزل فيها وأنها ليست فعلاً مؤقتًا ولا رد فعل فحسب.

الفصل الخامس

مقدمة من مقام البياتي لإرهاصات الثورة

أبدأ فأشير إلى أن مقام البياتي واحد من أشهر المقامات العربية ، وإن كان هو أكثر المقامات الكردية استعمالاً في أغاني الأكراد المعاصرة ، وبخاصة في المهجر حيث تذاع هذه الأغاني أو تعزف كجزء من الصورة المميزة التي تقدمها مطاعمهم وملاهيهم ، وربما يفسر لنا هذا طبيعة الاختلاف بين الكرد الذين هم في رأيي و معتقدي يمثلون عرب البادية وبين العرب بصفة عامة ، وربما يدهش القارئ إذا ما عرف أن الربابة العربية التي تسيطر على الغناء الشعبي و الإقليمي في صعيد مصر لا تعزف أحياناً إلا من مقام البياتي فقط .

لست في حاجة إلى أن أذكر للقارئ أن هذا المقام يرتبط في وجداننا العربي والفني بإحساس الانتظار والترقب والتلهف ، وربما يتأكد هذا المعنى الذي أقصده إذا ما ذكرت للقراء أن هذا المقام كان هو القالب الذي غنت منه السيدة أم كلثوم أغنياتها المؤثرة : القلب يعشق كل جميل من ألحان الفنان زكريا أحمد ، كما غنت منه أغنياتها هذه ليأتي للفنان محمد عبد الوهاب ، ثم أزيدك من البيت شعراً فأذكر لك أنه هو المقام الذي غنت منه الفنانة فيزة أحمد أغنياتها الرائعة ست الحبايب من ألحان الأستاذ عبد الوهاب ، ومع هذا الوضوح كله فإن قلبي لا يطاوعني في الدخول على الموضوع من دون أن أذكرك بما لا تنساه من أن البياتي هو أيضاً مقام الأغنيين المشهورين للفنان وديع الصافي ، وهما يا عيني على الصبر ، ودار يا دار .

روح الفداء الصادقة

أدخل إلى موضوعنا من ذروته فقد عرفت مصر حالة من الطهر والتطهر عقب ٢٥ يناير ، كان المصريون المستقيمون وهم أغلبية كبيرة من الشباب والصبية على استعداد حقيقي أن يضحوا بأرواحهم من أجل مصر .

بدأ هؤلاء جميعاً يعتززون بالشهداء الذين قضوا في ميدان التحرير وفي السويس على حد سواء. وفي أماكن أخرى من الوطن كانت عصا الأمن الغليظة فيها أسرع من السلطة نفسها في مواجهة الثورة.

كنت أمر في الشوارع وأنا لا أزال عاجزاً عن الحركة بدون العكاز فأجد شباباً ارتدى القفازات وأخذ ينظف الشوارع، فأنصرف إلى حيث لا يرونني وأبكي ما شاء الله لي أن أبكي.

لم أكن أتوقع أنني سأشهد مثل هذه الثورة الجادة في حياتي فإذا بها تأتي أسرع مما توقعت، بدأت أحاول أن أحلل الأسباب التي سرّعت أو عجلت بالثورة ومدى صحة ما ذكره لي أكثر من واحد من الأحياء عن إسهامي المتواضع فيها، شعرت بالفخر من أن توسيع قاعدة التعليم الجامعي والعالي قد آتت ثمارها سريعاً، كان هناك كثيرون من شباب الثورة من طلاب التعليم المفتوح والانتساب الموجه والجامعات الخاصة والمعاهد العليا الخاصة، ومن المنتسبين إلى برامج تعليمية جامعية خارج مصر.

الأثر المباشر لتوسيع قاعدة الجامعيين

تذكرت محاوراتي ومحاولاتي الجادة والمثمرة التي أدت إلى توسيع قاعدة هذه الأنماط من التعليم، كان كل أساتذتي الكبار ينصحوني بالتريث في مثل هذه الدعوات والتحسب لكثرة الشهادات في البلد، ولم أكن أشغل بالي بالمعارك أو إثبات الذات في هذه الجزئية أو تلك ، لأنني كنت أؤمن أن الجهد الذي ينجح في إقناع مسئول واحد بالقضية سوف يثمر أضعاف المناقشات التي تتبادلها الصحافة ويتحزب الكتاب فيها إلى رأي ما أو إلى نقيض هذا الرأي.

كنت أرى بعيني رأسي تجارب الأطباء الذين يبعثون بأبنائهم إلى المجر ورومانيا ليعودوا بشهادة السنة الأولى من الطب فينتظموا مع مَنْ هم في سنهم ممن حصلوا على المجموع المؤهل لكلية الطب في التنسيق.

كنت أعلم علم اليقين أن أي زيادة في أعداد المقبولين في الكليات سوف تؤدي إلى مزيد من التدهور الذي بدأ منذ توقفت خطط التنمية في منتصف الستينات رغم أن الشائع أنها لم تتوقف إلا بعد ١٩٦٧، بينما الحقيقة أنها توقفت بعد الدخول في حرب اليمن مباشرة.

كنت أعرف أن أجيال شيوخ الصناعات في مصر تربوا في عهد الاحتلال الإنجليزي الذي كان يحرص بصورة خفية على احترام الشهادات بعدم إتاحة الطريق إليها إلا بالقدر المحدد الذي سوف توفره الحكومة من وظائف للحاصلين على هذه الشهادات، وقد سيطر هذا الفكر حتى على مشايخ الأزهر الكبار الذين كانوا يرون أن يقتصر منح عدد الشهادات العالمية والعالية على ما هو متوقع وجوده من وظائف حتى لا تحدث بطالة في الحاصلين على الشهادات العالمية والعالية، ومن ثم تفقد هذه الشهادات مكانتها وقيمتها ..

وهكذا كان هؤلاء الكبار يفكرون وكان تفكيرهم صدى لواقع عصرهم، وجاء العصر الناصري ليؤكد بكل آلياته وبكل ما كان يتميز به من انضباط بيروقراطي هذا المعنى القديم من كل ناحية ، رغم أنه استمتع (ولا نقول استفاد فحسب لأن استفادته وصلت حد الاستمتاع) بما وجده من جيوش المؤهلين الذين لم يكن لهم عمل فوظفهم لأهدافه مستفيدا من تأهيلهم الجيد الذي صنّع من قبله، ثم توسع في هذه الاستفادة حين أخذ بنظام القوى العاملة الذي كان يضمن لكل متخرج وظيفة ، وبالتالي فإنه كان يؤمن لكل طفل وظيفته.

أحد الآثار الإيجابية للانفتاح الاقتصادي

حين حدث الانفتاح خرجت قوى بشرية من العمل في الحكومة إلى العمل في القطاع الخاص والاستثماري والعمل في الخارج ، لكن أحدًا لم يعن بأن يناقش فرص العمل في الخارج من منطلق فوقي بدلًا من المنطق البراجماتي.

كان أسلافنا الذين أسسوا الجامعة المصرية في ١٩٠٨ ثم في ١٩٢٥ و اعين لفكرة التعليم الجامعي و أهمية التعليم الجامعي ، ولهذا فإنهم لم يشغلوا أنفسهم بإنشاء كلية للمعلمين في الجامعة وإنما بإنشاء كلية الآداب وكلية العلوم.

نجحت كلية الآداب في تغذية الوظائف للمختلفة التي لم تكن موجودة حين نشأت الجامعة، وعلى سبيل المثال فقد أصبح خريجو قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب هم المنبع الطبيعي للإذاعة المصرية ، لا لأنها تذيع بالإنجليزية ، وإنما لأن هذا القسم في مناهجه كان يتعمق في دراسة المسرح والتدريب عليه و يتعامل مع التراث الإنجليزي والمكتبة الإنجليزية والخبراء الإنجليز والدراما الإنجليزية والإذاعة البريطانية .

وهكذا كان هؤلاء الخريجون قادرين على إنجاز ما يتطلبه الإعلام من رجال قادرين على الإخراج و الإعداد و الإنتاج معا وهكذا كان هؤلاء يستحضرون بعضهم البعض ويستقدمون بعضهم البعض لهذه المهام من قبل أن يستقبطوا خريجي التخصصات الأخرى ومن قبل أن ينشأ معهد الصحافة، وتطويراته.

الفصل السادس

موال النشيج على تبديد القوة

عقب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ كان العالم كله (بلا مبالغة) يريد أن يسترضي الشعب المصري

- فالذين كرسوا الاستقرار للوضع السابق الذي ثار عليه الشعب كانوا يريدون أن يقولوا إنهم يستجيبون للشعب ويريدون أن يقدموا دليلا على هذا.
- والذين كانوا يقولون إنه شعب يحب الاستبعاد والاستبعاد ويحبذ الاستكانة كانوا يريدون أن يقولوا إنهم يعرفون القول القائل باتقاء شر الحليم إذا غضب.
- والذين ظلوا بعيدين عن الشعب متمسكين بالعلاقة مع الرسميين فحسب ، كانوا يريدون أن يكفروا عن خطأهم في حق الشعب المصري وفي حق أنفسهم التي كانت برمجت معلوماتها على نحو خاطئ لم يسمح لها بمعرفة هذا البركان ذي الطبيعة الخاصة.

وعلى طريقي في الكتابة، فإن بعض القراء يتوقعون أن أضرب مثلاً على كل طائفة من الطوائف الثلاثة السابقة بدولة ما .

ولهذا أقول إن أمريكا ربما تمثل الطائفة الأولى ، وإن الدولة العربية الكبيرة ربما تمثل الطائفة الثانية .. ، وإن أوروبا وبخاصة ألمانيا ربما تمثل الطائفة الثالثة ، لكنني في الحقيقة لا أميل إلى هذا ولم أقصد هذا بالتحديد ، وإنما كنت أقصد أنه في أمريكا نفسها كانت توجد أمثلة بارزة على الطوائف الثلاثة، وكذا في الطائفتين الأخريين .

المحصلة النهائية

لكن المحصلة النهائية لهذه التوجهات كانت تتلخص في كلمة واحدة هي الرغبة الملحة في المساعدة، وسواء أكانت هذه الرغبة الملحة صادقة أم كاذبة فإنها كانت موجودة ومعبرة عن نفسها بكل وضوح.

لكن المشكل الأكبر أن أصحاب الرأي فينا لم يكونوا على مستوى الحدث ولا على مستوى طموح الشعب ولا على مستوى التعامل الخارجي مع ثورة الشعب المصري.

وكما هو معهود في كل الإهمالات المعهودة في التاريخ فقد كانت هناك تبريرات جاهزة لهذا الإهمال في توظيف نتائج ثورة المصريين من أجل مصر ، وعادة ما تنجح القوى المسؤولة عن الإهمالات في اختيار أكثر التعبيرات جاذبية لتبرير فشلها والظهور بمظهر البريء .

تعددت الفئات

وفي حالة ثورة يناير فقد تعددت الفئات التي أدت هذا الدور.

المتحدثون باسم المجلس العسكري سواء كانوا عسكريين يؤدون وظيفتهم أو صحفيين تطوعوا بهذه المهمة إظهاراً للأهمية من ناحية، وتقرباً من المجلس من جهة أخرى جاءوا في المقدمة.

وتحدث هؤلاء المدافعون عن المجلس عن أنه لا يريد أن يستلب حق الحكومات القادمة والنظام القادم في فعل ما يريد بالطريقة التي يريد.

وكان هذا التصوير المتخذ صورة النبل واضح السذاجة في الوقت نفسه، بل إنه كان (في عالم الطب مثلاً) يدخل في إطار اللامعقول، فهل يمكن أن أوقف التغذية الوريدية للمريض أو أوقف العناية الروتينية به إلى حين أن يأتي الطبيب الاستشاري الذي سيناظر الحالة بعد يوم أو اثنين ويتخذ قرار العلاج المناسب؟.

لكن المجلس العسكري كان إذا ووجه أو جوبه بمثل هذا المنطق يرد على المعلقين بإجابات تقليدية لم يفهمها أحد (أو لم يفهم مدلولاتها) بالقدر الكافي من الانتباه الى نوايا ذلك المجلس.

الرد ومعنى الرد

كان المجلس يقول ردًا علي تخاذله إنه لا يريد السلطة، بينما كان يقول ردا على تركه الأمور الطارئة تتفاقم إن هذا ليس من اختصاصه وأنه لا يريد أن يتعدى الاختصاصات التي عاهد أعضاء المجلس أنفسهم على الوفاء بها دون تعد على سلطات الدولة الأخرى.

وعلى هذا النحو مضت سنة ونصف من الضحك على الدقون، بينما أغلب المجلس متفرغ بكليته أو بكل كيانه للعمل على وأد الثورة والإيقاع بمن آمنوا بها ، واستنزاف طاقة الإخوان في معارك يجلبها المجلس دون أن يكون للإخوان فيها ذنب أو وزر، وهو ما وصل ذروته في قصة شارع محمد محمود حين ارتكب بعض أفراد المجلس العسكري جرائم حرب وطلبوا من الإخوان أن يتقبلوا أن يشاركوهم المسؤولية عن الجريمة إذا هم لم يتقبلوا الجريمة نفسها.

شرعية الميدان فوق شرعية البرلمان

في ذلك الوقت بالتحديد كنت أنا الذي رفعت شعارًا واضحًا ، وهو أن شرعية الميدان فوق شرعية البرلمان، وتردد صدى هذا الشعار المعبر في بعض مواقع التواصل الاجتماعي على استحياء ، لكن الجو العام كان يستهدف إدانة الإخوان بذنب العسكري أو الدفاع عنهم من لعبة العسكري دون أن يؤصل للقضية الجديدة التي بدأت تفرض نفسها وهي قضية إجهاض الثورة تحت اسم الديمقراطية.

ولأن مصر لا تفتقد أبدًا من يجيد التقاط الموجة أو التقاط الصدى ، فقد فوجئت بمذيعه موهوبة ولامعة (لن أذكر اسمها من باب حمايتها) وقد صممت على أن تسجل ساعة كاملة هي كل الزمن المخصص لبرنامجها حول هذه الجملة "شرعية الميدان فوق شرعية البرلمان".

لم يكن أحد يتخيل

لكن أحدًا لم يكن ليتصور أن تتطور الأمور إلى ما تطورت إليه في ٢٠١٤ و٢٠١٥، وهكذا كان هم كثير من أبناء السياسة أن يتخلصوا من الإخوان تمامًا كما يتمنى الطالب المتوسط أن يموت الطالب الشاطر ليصبح هو نفسه أول الفصل مع أن في وسعه، بقدر من الجهد، أن يذاكر وأن يكون الأول.

كانت الأمور تمضي في نطاق بعيد عن أن يفيد الشعب الذي قام بالثورة من أجل أن يكون أبناؤه في وضع أفضل إن لم يكن هو نفسه. ونأتي إلى الوزارة القائمة كان النموذج الامثل لعجز الحكومة المصرية على مدى التاريخ هو عصام شرف، ولست أنكر أنني كنت أومل فيه خيرًا كثيرًا لأسباب أخصها سريعًا:

- كان هو نفسه قد اكتوى من الظلم بلا مبرر من أجل المافيا.
- كان هو نفسه متطلعًا إلى أن يقدم لبلاده شيئًا.
- كان أحد الذين ظلموه هو زميله أحمد نظيف الذي جاء الوزارة قبله ، ووصل إلى رئاستها يوم دخل هو نفسه وزيرًا.
- كان من الذين يتمتعون على مستوى المطالب أو الاحتياجات المادية بحدود معقولة من الاستقرار الكفيل بالالتفات إلى العمل وحده، فقد كان يسكن في بيت والده الذي كان أستاذًا بكلية الطب البيطري، وكان هذا البيت في مساكن هيئة التدريس الشهيرة في حي الدقي خلف سنترال الدقي، وهكذا لم يكن كالذين يأتون من الإسكندرية أو الأقاليم أو الاحياء الجديدة أو البعيدة وفي حاجة إلى كثير من الجهد كي يندمج في الحياة اليومية.

لكن عصام شرف حتى من قبل وصوله إلى لحظة حلف اليمين رئيسًا للوزراء كان قد انتهى إلى أن يكون مجرد عبد مأمور ضعيف ومتخاذل في صفوف العسكر حتى إنه كان لا يمانع أن يقول لأصدقائه الأقربين إن اللواء محمد الملا لم يوافق، واللواء محمد الملا كان (كما يعرفه قراء الصحف فيما قبل الثورة) هو المسئول عن تنسيق القبول في الكليات العسكرية، وقد كلفه المشير أو المجلس العسكري بالإشراف على شئون مجلس الوزراء لكن عصام شرف طور مهمة محمد الملا لتكون الإشراف على رئيس الوزراء الذي هو عصام نفسه .

وبلغت المهانة بعصام شرف أن استدعاه المجلس العسكري ذات مرة وهو يرأس اجتماعاً للوزارة، دخل عليه عسكري المراسلة وقرأ من قطعة من الورق أسماء الوزراء الذين يستدعيهم المجلس العسكري لمقابلته، وعلى رأسهم عصام شرف نفسه، فما كان من عصام شرف إلا أن استأذن الوزراء الأعضاء (الأقل أهمية .. أي الذين لم يستدعهم المجلس العسكري الحاكم) في أن يذهب هو والوزراء المستدعون إلى اللقاء العسكري بينما يظل بقية أعضاء الوزارة مجتمعين من دون مناقشة رسمية إلى أن يعودوا هم.

ولم يفكر رئيس الوزراء الذي هو عصام في أن ينهي الاجتماع ولا أن يستأذن في خمسة دقائق ينهي بها الاجتماع، ولا أن يكلف أقدم الوزراء من غير المطلوبين أن يتولى رئاسة الجلسة .. ودعك من الحل الطبيعي المتوقع عند أي إنسان ذي كرامة بأن يطلب (هاتقيا) من المشير أن يتركه نصف ساعة ليتم الاجتماع بأيّة صورة تحفظ الشكل و الكرامة.

الفصل السابع

مزمار الرهاب من الشباب

كان المجلس العسكري قد وصل إلى نتيجة مؤكدة هي أن منبع الخوف كل الخوف يتمثل في الشباب ، وأنه كلما زاد سن المتعامل معه من الشعب قل خطره.

ومع أن المجلس نجح في أن يدعو كثيرًا من الشباب إلى فعاليات مظهرية هنا وهناك وأن يلوح لهم بما تملكه القوات المسلحة من عناصر القوة اللوجستية ممثلة في المطاعم والمشارب والكراسي؛ فإن الشباب كانوا إذا خلوا إلى بعضهم البعض بدأوا يتعجبون من أن يظن هؤلاء القادة أنهم يملكون القوة بمثل هذه الأندية التقليدية المسطحة والقاعات ذات الخدمة الأدنى .

كان رأي الشباب في المجلس العسكري وأعضائه قاسيا ، ولم يكن رأي العسكر في الشباب أقل قسوة فقد كانوا يصرحون بأنهم تائهون ، وأنهم يظنون أن فيما تعلموه من كلمات جديدة ما يمثل الحل، واتضح للمجلس العسكري بعد بعض الوقت أنه يفتقد الكوادر التي تعرف معاني المفردات الجديدة من قبيل الشفافية والثورات الملونة والحشد والعصيان المدني ... إلخ.

الحيل التقليدية

ولجأ المجلس العسكري إلى كوادر جامعية تقليدية لتعينه على استكمال هذا النقص وتعويضه، فإذا بهذه الكوادر بعيدة هي الأخرى عن الجديد وإذا بها توقفت عند حدود مصطلحات من قبيل الكاريزما والمذاهب الهدامة.

وبالرغم من هذا ، فقد طلب المجلس العسكري وأجنحته المختلفة من مجموعة من الضباط المتقاعدين أن يجهزوا أنفسهم للانتشار السريع في وسائل الإعلام ، وبخاصة الفضائيات لينقلوا للشعب معاني مختلفة عن هذه المصطلحات والمفاهيم التي يرددها الشباب ، وكان الأمر مأساة بكل ما تعنيه الكلمة.

تصادف أنني حضرت لقاءً مع من أصبح بمثابة ألمع هؤلاء الخبراء الاستراتيجيين، رحمه الله، وقد أتيح لنا أن نجلس معاً قرابة الساعة قبل ظهورنا على الشاشة وعرفت من هذا الرجل معلومات كثيرة في النسب والمصاهرة كنت أبحث عنها من مدة، ثم دخلنا إلى الهواء.

وقد أعجبتني من هذا الرجل أنه انتظر حتى أدليت بوجهة نظري ثم اختار بعض أجزائها فدعمها بمنتهى اللطف والتقدير دون معارضة لي أو اشتباك معي وهكذا بدأت إجابة السؤال الثاني، وهكذا فعل هو الآخر.

لم أكن حتى هذه اللحظة أعرف أن المذيع الهام يعمل لحساب الثورة المضادة التي لم تكن نذرها قد بدت بما فيه الكفاية، لكنه في هذا اللقاء أبان لي ما لم أكن اعرفه عن أن الثورة المضادة بدأت وأنه من جنودها الأوفياء، ذلك أنه بدون مناسبة ولا مبرر فاجأني وفاجأ المستمعين بإظهار تعجبه العلني الواضح والصريح من أن يكون الخبير الاستراتيجي على توافق مع آرائي، مع أنه من المفروض أنه ينتمي إلى مؤسسة ذات توجه مختلف.

وبمنتهى الرشاقة واللطف عبرنا (الخبير الاستراتيجي وأنا) هذا المأزق الذي تطوع المذيع بوضعه لنفسه، مع أنه كان من المتوقع أن يكون أسعد الناس بالتناغم أو الهارمونية الذي وجدتهما ما بين أقوال الخبير الاستراتيجي وأقوالي.

من الطريف أنني قلت للمذيع: إنني أنتمي لجيشنا وتاريخه وكانت المفاجأة أن الخبير الاستراتيجي رد بقوله إن الجيش يضبط معلوماته التاريخية ويتعلم من كتب الدكتور ولا يعتبره غريباً عنه.

إيفاد خبراء في مهمة تخريبية

في مرة أخرى (بعد الأولى بأسبوعين) بدأت أحس بأن الثورة المضادة تشحذ أسلحتها حين فوجئت في اللحظة الأخيرة السابقة على دخولي الاستوديو باتنين أو ثلاثة من الخبراء الاستراتيجيين، وقد جاءوا بنية هدمي في البرنامج التلفزيوني الذي كنت ضيفاً شبه دائم فيه.

ومع تعثر أول هؤلاء الخبراء في نطق بعض الكلمات الاصطلاحية ، أدركت أن الأمر يقتضي نوعاً من المهارة واللباقة حتى لا أتورط في الانزلاق أو الانجرار إلى تصحيح الأخطاء التي تقع منه أو في ضبط النطق العربي أو الإنجليزي له، ومثل هذا التورط كفيلاً بأن يفقدني أوتوماتيكياً حقي في مناقشة الأفكار... ومع هذا فلا بد من أن يستمتع المشاهد بحقه في أن يضحك من الموقف المستدعي للضحك والرتاء.

أخذت أفكر فيما ما يجب عليّ أن أفعله دون أن أبدو في مظهر الأستاذ أو الخوجة أو المتكبر على ضيوف.. وإذا بي أفيق من التفكير على عبارة وردت في حديث سيادته يقول فيها: "إن واجب القوات المسلحة أن تحارب الحركات الهدامة" ، وقبل أن يلتقط نفسه كنت بمنتهى التواضع والرفقة أسأله أن يوضح للمشاهدين طبيعة الحركات الهدامة وأن يضرب مثلاً عليها؟

الهدامة

وإذا بالمفاجأة السعيدة تهبط على رأسينا متمثلة في أنه قال: "الشيوعية" وبدأ ينتقد فكرة الشيوعية والنظرية الشيوعية بالانتقادات المكارثية المعروفة وكان السيناتور مكارثي نفسه لم يمّت وكان السنوات الخمسين لم تمض.

وفي هدوء شديد بدأت أقدم يد العون للرجل حين يحتاج لاستكمال معانيه و أطروحاته الى مفردة من المفردات أو مصطلح من المصطلحات أو اسم رئيس أو سياسي وهكذا تكرر الأمر مع الخبير التالي.

يومها قالت مجموعة المعدين للبرنامج إن قراراً سيادياً كبيراً سيؤخذ الليلة بمنع الخبراء الاستراتيجيين من الظهور معي ... فقلت لهم : إنكم تبالغون ، فضحكوا من أنني لا أعرف.

لكن المفاجأة السعيدة جاءت بعد يومين حين دعيت إلى برنامج يشترك فيه معي خبير استراتيجي ، وإذا بي أجد أن الخير يملأ نفسه العظيمة الطيبة رحمه الله وغفر له ، وإذا بهذا الرجل العظيم يتحول بعد هذا اللقاء الذي حضرناه معاً إلى أن يعلن بكل وضوح أنه من أنصار الشرعية وإذا به يفعل.

هكذا كنت أرى بكل وضوح أن الحوار ينتهي ليكون في مصلحة الثورة ، وليكشف الثورة المضادة .

الانتقال من الحوار إلى التلقين

لكني لم أكن أعرف أن التخطيط "الشييطاني" أو "الخفي" للثورة المضادة قد انتبه هو الآخر إلى هذه الحقيقة ، وأنه اتخذ قراره بالعدول تمامًا عن الحوار و المناقشة إلى "التلقين" و"المونولوج" و"الإيماء" مع إزاحة الثورة ومن يحبونها بعيدًا عن الشاشات بقدر المستطاع ، على الرغم من أن هذا كان من الصعب تحقيقه بسرعة.

وفي هذا الإطار ، كان التخطيط "الشييطاني" مستمرًا في استطلاع رأي الفئات المختلفة من الشعب إلى أن وصل إلى حقيقة مهمة، وهي أن أصعب الناس مراسًا هم الألتراس . ذلك أنهم يرفضون دعوة المجلس العسكري للقاء بهم مهما كان شخص الداعي.

ولست أذيع سرًا إذا رويت ما نمى إلى علمي من أن أكبر قيادات القوات المسلحة طلبت بنفسها وبصفة شخصية من عدد من الذين ظننت أنهم هم أصحاب تأثير على جموع وجماهير الألتراس أن يرتبوا لهم، أي للقيادة الكبيرة، لقاءات مع الألتراس بأي ثمن، وأن هذا الطلب ذهب سدى.

لكن ستر الأمور كان يقتضي أي تغطية من قبيل الجلوس مع أي مجموعة على أنها الألتراس.

لكن قرارًا كبيرًا كان قد اتخذ بحركة تأديبية قاسية، وكانت هذه الحركة التأديبية فيما يبدو هي مذبحه بورسعيد.

كانت مذبحه بورسعيد بمثابة البروفة الأولى لمذبحه رابعة، وتكاد الملامح الكاشفة للمسؤول عن هذه تتطابق مع تلك.

استمعت بمحض الصدفة إلى أول ما أذيع عن المذبحة ، فهالني أن يموت هذا العدد في مباراة، كان العدد لا يزال حول عشرة قتلوا ، لكنني انزعجت أيما انزعاج فتركت ما كان بيدي وبدأت أتابع ، فإذا العدد يزداد في سرعة بالغة وإذا به يقفز سريعًا.

تلقيت اتصالًا هاتفيًا من إحدى القنوات الفضائية وسألوا إن كان ممكنًا أن أتحدث على الهواء مباشرة فأجبت نعم وطلبت منهم أن يطلبوني على التليفون الأرضي لأن تليفوني المحمول فيه خاصية التنبيه إلى مكالمة أخرى قادمة مما سيفسد الحديث على الهواء مباشرة، وفي أثناء تحركي إلى حيث يرقد التليفون الأرضي كانت مكالمة أخرى من فضائية أخرى تلح عليّ في أن أتحدث فوراً ، فطلبت منهم أن يتابعوني على القناة الأخرى ، وسأتحدث إليهم ريثما أنتهي ممن سبقوهم إلى الحديث إليّ.

وفي أثناء حديثي للقناة الأولى كان التليفون يرن للمرة الثالثة من قناة الثالثة ، ... وهكذا كانت هذه الصور المتعاقبة "المصغرة" نذيرًا واضحًا بمدى ما اعتلم في النفوس من انزعاج عميق ورعب فوري نتيجة هذا الحادث.

أوضحت بعبارات صريحة أنني بحكم مهنتي الطبية لا أعرف تشابكًا مهما كانت حدته يؤدي إلى مثل هذا العدد من الضحايا ، وأني بكل ثقة أرجح أن هناك "فرقة موت" أو فرق موت (وليست فرقة واحدة) قامت بهذا العمل.

الطب الشرعي علمنا

وشبهت الأمر في حديثي على الهواء بما يحدث إذا تم كسر العمود الفقري لأي حيوان أو طائر وكيف يموت من فوره.

وقلت إن الطب الشرعي علمنا أن مناظرة جثث الضحايا بالنظر المجرد سوف تكشف إن كان هؤلاء قد ألقوا من المدرجات وهم أحياء ، أم أنهم قتلوا بكسر العنق وهم في المدرجات ثم ألقيت جثثهم من علٍ.

لا زلت حين أتصور من باب الذكرى ما حدث في ذلك اليوم أشعر بانقباض مؤلم (وحداد) في الصدر وصداع مميت في الرأس، وفي الوقت ذاته كنت أتعجب من هذه

الطاقة العقلية الهائلة التي فتح الله بها عليّ، حيث شخصت وأبنت وشرحت وفاضلت بين الأسباب وانتهيت إلى تشخيص واضح واتهام محدد، ولا أظن أن هذا كله ينتج عن عقلية إنسانية في دقائق معدودة إلا أن يشاء الله.

بينما كنت أتحدث في القناة الثانية كنت أرى على الشاشة عناوين تذكر كلامي حرفاً بحرفاً، وهو ما جعلني أحرص في حديثي على أن أشير بوضوح إلى أن هذا فهمني المبدئي باعتباري طبيباً قبل كل شيء.

كانت أصوات المذيعين والمذيعات المختنقة تلخص المشهد الفظيع بصورة لا تقبل أي تفسير من التفسيرات التي تبتغي تحويل النظر عن السبب الحقيقي إلى أسباب أخرى غير حقيقية وغير منطقية.

الخروج عن الصمت

بعد دقائق وجدت أولى القنوات التي تحدثت فيها تحاور بالهاتف صديقي عضو مجلس إدارة النادي الأهلي، كان هذا الصديق معروفاً بأنه لا يتحدث في موضوع من الموضوعات الخلافية إلا إذا كان يملك من الحماس ما يجعله في جانب من جانبي الصراع، فهو متحمس وليس حريصاً على إظهار الرأيين والموازنة بينهما، ووجدته بما توافر له من معلومات مياًلاً تماماً إلى رأيي، ومعتبراً أنه هو الحقيقة التي أكدتها شواهد متعددة.

لكن الذين ارتكبوا المذبحة أو الذي ارتكبها كان من الذكاء بحيث تجاهل تماماً التعليق على ما قلت رغم إلحاح المذيعين والمذيعات عليه بالمناقشة.

كان من الواضح أن القضية سُنِّدَر إلى القضاء بعد النيابة كي يطول عهدها ويملأ أصحابها.

لكنني ومعني كثيرون ممن أهمهم الأمر على المستويين الفكري والوطني بدأنا ننظر إلى الأمور نظرة أخرى منتهية بالمقدمات والاستنتاجات إلى أن شوق طرف ما من الأطراف إلى السلطة وشغفه بها وشبقه إليها قد بلغ منتهاه، وأنه لم يعد قادراً على طاعة من يكبح جماحه مرة بعد أخرى.

لم نكن نعرف من هو ذلك المتحمس داخل حزب الثورة المضادة، وإن كنا قد بدأنا نتصور أنه يكافح بإصرار ويناور بلا ملل من التكرار.

كنا نفهم أنه لا بد أن يكون هناك من بين القادة العسكريين في المجلس من يساند مثل هذه الفكرة ، ومن يرى نفسه قادرًا على الانتصار على الثورة وعلى الشباب بالتآمر وليس المواجهة، وأنه يشعر بإمكانية نصره لأنه يرى "فراعًا" سلطويًا في الأفق.

لكننا لم نكن نتصور أن استعراض هذا الطرف لقوته تصل إلى هذا الحد من القتل غير المبرر لشباب طاهر ليس له ذنب في انتصار الثورة ولا في انتصار الشباب.

حادث بورسعيد كان كاشفا بما فيه الكفاية

لكننا حتى تلك اللحظة لم نكن نعرف أن آلة القتل ممكن أن تعمل بهذه الطريقة وبهذه المبررات وبهذه العقلية القادرة على اختيار موقعة للأداء القتالي في ذلك المكان بالذات (بورسعيد) ، وفي هذا الحدث بالذات (مباراة الأهلي والمصري) وفي ذلك الوقت بالذات.

لكن الثورة المضادة لما اكتملت عناصرها أجابت لنا عن كل الأسئلة التي كنا نبحث لها عن إجابة.

الفصل الثامن

ديالوج الحوار الصياد

في صباي سمعت من والدي، رحمه الله، أن أحد أساتذتهم في الكلية والدراسات العليا كان ماهراً في اقتناص المعلومات من تلاميذه، إذ كان يدفعهم دفعاً إلى محاجة بعضهم بعضاً ويستمع إليهم فيتعلم منهم ويلم بكل ما يخص الموضوع الذي خصص له الدرس، كنت أتعجب من هذا الأسلوب وأتشكك في أن يكون مثل هذا الرجل أستاذاً جامعياً أو عالماً يبني معلوماته على هذا النحو الممزق، وكأنه ذلك الرجل الذي ينسج بقايا الأقمشة ليصنع منها سجادة من الكليم كل خامتها هي تلك البقايا التي كانوا يسمونها "قصاقيص"، ومن العجيب أن هذه القصاقيص في الستينيات كانت تصنع للفقراء ما يناظر السجادة أو ما يقوم مقامها، وكان هذا حلاً شعبياً ذكياً من حلول المصريين الأذكياء في التعامل مع الفقر.

كنت أنظر إلى هذا الأستاذ على هذا النحو، وأعتقد أن معلوماته عن الموضوعات الجديدة لن تكون على مستوى ما هو معروف في العلم بنسيجه ورونقه وتقسيماته واكتماله!

لم اكن أفهم العلم واكتسابه إلا على النحو المكتمل، ولم أكن أفهم محدودية المدى الذي يمكن للمناقشات أن تلم به من العلم على هذا النحو الضعيف.

لم أكن أصدق

وظلت هذه الصورة في ذهني قابلة للاستدعاء والاستشهاد دون أن تكون قابلة للتصديق التام حتى حدثت ثورة يناير ٢٠١١، وإذا بالمجلس العسكري يدبر (أقول يدبر بالياء من التدبير، وليست يدبر بالياء من الإدارة) كل معلوماته من هذا المورد وحده وبهذه الطريقة وحدها.

أردت أن أؤكد ما استقر عليه رأي الناس من أن المجلس العسكري لم يشغل باله باستيعاب موضوع (أي موضوع) من الموضوعات المتعلقة بإدارة الدولة أو سياستها، وإنما اعتمد تمامًا على أن يجري حوارات أو محاورات ويدفع أصحاب الآراء إلى الصراع ويسمع هو ويختار مما يسمعه ما يتوافق مع ما يريده، وفي الوقت ذاته يختار ممن يسمعون من يتوسم فيهم أن يحققوا مراده.

أدركت هذا المعنى منذ الأيام الأولى للمجلس العسكري وترحمت على والدي الذي فتح أمامي مغارة علي بابا الكفيلة بالتصور الكامل والتصوير المتنامي لقدرة هؤلاء على أن يصوغوا قرارًا أو يكونوا رأيًا أو أن يقودوا توحهًا.

أخذت أعود بالذاكرة إلى مخزونها لتذكر اسم هذا الأستاذ وما وصل إليه ، فإذا بي في ذات ليلة أتذكر حوارًا بين والدي وصديق له كان هو الآخر أستاذًا لي حبيبًا إلى قلبي، وكان هذا الأستاذ الحبيب إلى قلبي يمت بصلة قرابة إلى أستاذ والدي، كأنه كان خاله مثلاً أو خال والده، سأل والدي، رحمه الله، أستاذه عن هذا الرجل بصيغة: ما أخبار خالك فلان يا فلان؟

يراجع صفحة النعي من أن لآخر

فقال له في سرعة رد بالغة : إن هذا العالم بخير وعافية ، لكنه من أن لآخر يراجع صيغة النعي التي ستنتشر عند وفاته، فيحدثها.. يعني أنه إذا كان له شقيق توفي استدعى مسودة النعي فأضاف قبل اسم شقيقه "المرحوم" وإذا كان له ابن عم أصبح وزيرًا غير منصبه في النعي ليكون "وزير" بدلا من "عميد".. وهكذا.

سألت أستاذه ووالدي معًا عن هذه "المهمة" : هل تستدعي أن يفرغ لها هذا العالم وقتًا فأجاباني في نفس واحد تقريبًا بأن هذا أمر جيد لأنه يشغل بها فراغًا ويحقق ذاتًا.

ومن العجيب أنني حين مررت بأكثر من تجربة في كتابة نعي والدي عليهما رحمة الله و رضوانه و بعض الأقربين من عائلتنا وجدتني أخطئ من دون قصد ، لا بسبب الحالة النفسية فحسب ولكن بسبب عدم التحضير .

ووجدتني عندما تذكرت هذه القصة أتأمل ما يفعله أعضاء المجلس العسكري ، فإذا به طبق الأصل من تصرف ذلك العالم القديم ، وكان هذا يبدو للناس بوضوح : إذا ما دهمتهم الأحداث انشغلوا بها وإذا فرغوا منها عادوا إلى الحوار.

المساران المتوازيان

بدأت حوارات المجلس العسكري على مسارين متوازيين وغير متقاطعين ، أولهما برياسة الدكتور عبد العزيز حجازي الذي هو في ذلك الوقت أقدم شخصية تنفيذية باعتباره رئيس الوزراء السابق (١٩٧٤ - ١٩٧٥) ، كان زكريا محيي الدين لا يزال على قيد الحياة لكنه كان مريضاً ومعتزلاً للحياة.

وكان المسار الثاني برياسة الدكتور يحيى الجمل الذي اختير نائباً لرئيس الوزراء الفريق ، فلما أقيمت الفريق أو استقال ، وكلف عصام شرف بتشكيل الوزارة، عاد المجلس العسكري فأعاد يحيى الجمل ليكون نائباً لرئيس الوزراء الجديد .

وكان الرجلان الفريق و شرف أصغر من يحيى الجمل بكثير .

من الطريف أن عبد العزيز حجازي كان هو رئيس الوزراء الوحيد الذي عمل يحيى الجمل تحت رئاسته وزيراً، أي أن يحيى الجمل لم يعمل وزيراً إلا في عهد وزارتي عبد العزيز حجازي التي كان حجازي فيها رئيساً للوزراء بالنيابة عن السادات (إبريل ١٩٧٤ – سبتمبر ١٩٧٤) وفي وزارة حجازي نفسه (سبتمبر ١٩٧٤ – إبريل ١٩٧٥) وانتهى عهده بالعمل الوزاري منذ ذلك الحين وحتى جاء به المجلس العسكري نائباً لرئيس الوزراء.

ومن الطريف أنني كنت أرتبط بعلاقات وثيقة جداً مع كلا الرجلين، حتى إنهما مشكورين تفضلاً فجاملاني بحضور جلسة تتويجي عضواً في مجمع اللغة العربية قبل ٨ سنوات من ثورة يناير. وكنت دائم الالتقاء بالرجلين بحكم اللقاءات العلمية والمهنية والوظيفية .

فكرة وزارة الإنقاذ

لما تعقدت الأمور فيما بين ٣٠ يناير (حين كلف الرئيس مبارك الفريق بتشكيل وزارة) و ١١ فبراير (حين تنحى الرئيس مبارك) كانت الدولة كلها تفتح ذراعيها لأي حوار أو اقتراح لحل الأزمة، وذلك من قبيل تجنب عزل مبارك! أو من قبيل تجنب سقوط النظام... إلخ

فلما سألتني جريدة الأهرام عن مقترحاتي قلت إن أول شيء هو تشكيل وزارة إنقاذ لا يدخلها وزراء جدد على نحو ما فعل الرئيس مبارك في وزارة الفريق ، وإنما يدخلها وزراء قدامى من المحبوبين الناجحين أو المقبولين القادرين على التوافق لصياغة حل لا يكون فيه اهتزاز كبير لفكرة الدولة ؛ لأن الاهتزاز الشديد سيزلزل كيانات قائمة الآن على سند ضعيف.

ومن الطريف أن الأهرام لم تقبل بالفكرة من دون أسماء محددة فاقترحت أكثر من عشرة أسماء على وجه التحديد القاطع ، ونشر اقتراحي والأسماء المقترحة في الصفحة الأخيرة من الأهرام بسبب ما اعتقد المسئولون عن التحرير من أنه أهمية بالغة للاقتراح ، وكانوا على حق فسرعان ما أخذ المجلس العسكري بهذه الفكرة مع وضع لمستهم لكن العجيب أن المجلس لم يخرج أبدا في اختياراته للقادمى عن المجموعة التي ذكرت اسماءها على وجه التحديد !!

فوجئت عند الإعلان عن الحوار الوطني والوفاق الوطني برئيسي الحوار والوفاق يتكرمان فيدعوانني للمشاركة ولم يكن بوسعي أن أعتذر كالعادة، فالرجلان جاملاني و كانا حتى ذلك الوقت لا يزالان يجمالاني، ثم إن العلاقة معهما أصبحت دورية ؛ فقد تعودت لقاء الدكتور حجازي في صلاة الجمعة ولقاء الدكتور يحيى الجمل في مواضع كثيرة ، منها على سبيل الطرافة صالون الحلاقة الذي أتعامل معه منذ أربعين عامًا، وكذلك هو ، وكنا إلى حد ما جارين طيلة هذه السنوات الأربعين .

تطور الأمر في سياقه الطبيعي بأن كلفت بمهام غير منظورة في الوفاق والحوار كان منها أو كان أهمها مراجعة الصياغات الأخيرة للبيانين اللذين كان من المفروض أن يصدرا عن هذا وذاك.

دعك من تطورات هذا كله لأصور لك ما بقي من تفاعلات الحوارين الأولين قبل أن يدخل المجلس العسكري إلى دائرة إدمان الحوارات والاعتماد عليها بديلاً عن الأكل والشرب في تغذية الحياة السياسية.

وسألخص الحوادث البارزة على هيئة نقاط منفصلة لنصل إلى بعض المعاني المراد الانتباه إليها ، بعد أن صورنا الجو العام على نحو موح بما كان فيه.

تهديدات من غير ذات صفة

أعلن الإخوان المسلمون أنهم لن يشاركوا، لكنهم لم يعلنوا عن منع من شاء من كوادهم من الحضور أو المشاركة، وهكذا فإنه في الجلسة الأولى للحوار التي رأسها يحيى الجمل وناب عنه (خمس دقائق) اللواء مساعد وزير الدفاع حين اضطر للذهاب إلى دورة المياه ، فوجئ الحاضرون بالسيدة المستشارة تصيح بصوت عال في وجه اثنين من الإخوان حضرا منفردين وهما الأستاذ صلاح عبد المقصود (وزير الإعلام فيما بعد) والدكتور أحمد إمام (عضو مجلس نقابة الأطباء) وكان صياحها أقرب إلى التحرش منه إلى الانفعال، وقد ظهر في حديثها تهديدها ، لهم ولإخوان وللإسلاميين، بأن مصر لن تكون كما يظنون وأن عهد مبارك الذي هادن الإسلاميين والسادات الذي بعثهم قد انتهى، وكأنها تريد أن تقول إن الناصريين واليساريين قادمون.

بدلنا جهداً حتى هدأت السيدة المستشارة ، مع أننا لا نعرف ولم نر سبباً لحالة الصراخ والانفعال الشديد التي انتابتها ولم نعرف أيضاً معنى للتهديدات التي أطلقتها بعد نجاح ثورة الشعب بما فيه من إسلاميين كان لهم المكانة العليا أو الكبرى في التضحيات والفداء ونجاح الثورة.

ليتنا ما هدأناها وليتنا تركناها حتى تنفجر بالأمور تماماً.

بعض ما ستعيد إنتاجه الثورة

مررت من أمام الصف الأمامي الذي كان في الناحية اليسرى ، فإذا بي أجد الدكتور مصطفى الفقي فوقفت لتحيته ومحادثته ، فإذا به بخفة دمه يلفت نظري إلى

ما لم أكن ملتفتا إليه وهو أن جاره في الكرسي هو فلان، رئيس حزب كرتوني كان قد حكم عليه جنائيا في قضايا، وقد سجن بسبب إحدى هذه القضايا وخرج لتوه من السجن، أراد الدكتور مصطفى الفقي ان يعرفني بالرجل "المعروف" وكأنه يقول لي: هذا هو بعض ما تنتجه أو ستعيد إنتاجه الثورة!! وإذا بي مضطر إلى أن أقول للدكتور الفقي إن الثورات بطبعها تفتح صفحات جديدة ، بينما أنا نفسي بالطبع لا أتمنى إعادة فتح مثل هذه الصفحات.

ولا أنكر أنني وجمت، لكنني ،في الوقت ذاته ، حمدت الله أنني لم أكن أنا الذي على مقعد الدكتور مصطفى الفقي.

ليتنى ما اقترحت قرار رفع الجلسة.

في لقطة من لقطات السخرية دُعي محام غير مشهور (وقتها) إلى الحديث لأنه كان قد سجل اسمه ضمن من طلبوا الكلمة ، وقُدّم اسمه مسبقًا بلقب المستشار فثارَت همهمة عالية الصوت أنه ليس مستشارًا وإنما محام.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى أثار حديثه شباب الثورة وتصايحوا أن هذا المتحدث من الفلول ومن أبطال معركة الجمل وأن مكانه في السجن وليس هنا، فلما لم يتوقف الرجل ولم توقفه المنصة اضطروا للقيام إليه ليقفوه بالقوة ، لكنه كان مستعدًا بالشعارات والمجادلة والاتهام الجاهز لهم بالعمالة...

قمت بعكازي إلى المنصة : أحاول أن أفصل بينه وبينهم بعكازي فلم أفجح فرفعت صوتي بحديث مبني للمجهول ، أنه لا بد من أن ترفع الجلسة، وسرعان ما أعلن رئيس الجلسة رفع الجلسة التي كانت تذاع بعض فقراتها على الهواء! و اليوم أقول : ليتنى ما اقترحت قرار رفع الجلسة.

والحمد لله كانت سليمة

وفي اليوم الثاني هاتفني أحد الأصدقاء من رؤساء التحرير الذين رأوا صور المشادة فذكرني أنني لا أتحمل خبطة ولا ركلة في المشادة ، وأنه يحسن بي ألا أقوم من مكاني "والحمد لله المرة دي كانت سليمة".

بجاهرون بهذا قائلين : حتى لو قلتم إننا رجعيون وقلول!!

كان الطابع الغالب في جلسات اليوم الثاني من الوفاق هو ذلك الصراع العلني بين الثورة وطلائع الثورة المضادة، أو بين من يعتبرون أنفسهم متشوقين للحرية وللعدل وبين من يعلنون بكل صراحة أنهم حريصون على النظام والدولة بحالتها السابقة ، وهم بجاهرون بهذا قائلين : حتى لو قلتم إننا رجعيون وقلول!!

كيف استطاع ان يترك البنك

كان رئيس مجلس إدارة البنك الكبير الذي صار بعد ذلك في أكبر منصب مصرفي في أصعب أيام مرت بالجنيه المصري، أحد المتحدثين من بعدي ، وقد راعني وروعني أنه استطاع أن يترك العمل في البنك ، ليتحدث ، بينما المجلس العسكري نفسه يشكو من الاقتصاد.

تصوير الأمور تحت الصفر ليكون أداؤه قد حقق شيئاً

لم يكن قد مرّ على الثورة شهر ومع هذا كان المجلس العسكري لا يصدر لنا ولا للشعب إلا الشكوى من اضطراب الأحوال الاقتصادية ومن نقص الاحتياطي النقدي ومن انفلات الإدارة الاقتصادية ، ومهما قلنا عن التجاوز في مثل هذه الشكاوى في ذلك الوقت؛ فإن التصوير الأمثل لدلالاتها أصبح واضحاً جداً بعد ٣ سنوات وكأن الانتقال من عهد إلى عهد كان هدفه هو التعبير عن الفشل الاقتصادي أولاً وأخيراً ..

لا أبالغ في هذا ، فإن الذين عاشوا تلك الأيام كانوا يسمعون من كثرة الشكوى من الترددي الاقتصادي ما يكفل لهم أن يصور ما نحن فيه الآن على أنه أفضل من ذلك النوع الذي كنا فيه ، وهكذا فهمت ما لم أكن فهمت من قبل من أن يحرص المدير الجديد على تصوير الأمور تحت الصفر عند استلامه ليكون أداؤه مهما ساء قد حقق شيئاً أي شيء .. وهذه هي الفائدة التي كانت الثورة تعطيها (من دون أن تدري) للعسكريين حين تتيح لهم أن يصوروا أن الأمور كانت متدنية تماماً قبلهم أو كانت أقل من الصفر.

وأنة وحده القادر على الحل

كان المساعد الشهير لوزير الدفاع الشهير حريصاً بدهاء الموظفين القدامى على أن يجر جر كل المناقشات و المحاورات إلى نقطة خلافية مهما كانت ضالة شأنها ليظهر أن هناك خلافاً ما، وأنه وحده القادر على الحل، وسأضرب مثلاً لم يحدث ، لكنه قريب مما تتكرر ، وهو أنه يقول إن هناك طلبات من أغلبية بأن تكون استراحة الغداء مثلاً الساعة ٢ وطلبات أخرى أن تكون الساعة ٣، وأنهم في المجلس طلبوا أخذ الأصوات واختيار الموعد الذي تختاره الأغلبية ، لكنه بحكمته وذكائه رأى أن يكون الغداء الساعة ٢ ونصف، وبذلك فإنه حقق رغبات الطرفين دون أن يكون قد انحاز لأحد الفريقين.

ويضحك الحاضرون من هذا الملعب البسيط ولا يمانع بعضهم في أن يثني على حكمة العسكر فيصم المساعد على أن العسكر أنفسهم كانوا مختلفين ، لكن هذا هو قراره هو، ويضطر الحاضرون إلى الثناء على حكمته هو، وأنه بحكمته هو الذي يختال علينا !!

مشكلات مصطنعة تماماً ومضحكة

كنا نواجه بمشكلات مصطنعة تماماً ومضحكة في صناعتها العسكرية ، وبخاصة إذا كان من يواجهها ممن يحضرون المؤتمرات !!

مثلاً كأن يأتي مساعد الوزير بورقة يعلن فيها أن على أصحاب السيارات أن يقوموا الآن كي ينقلوها من الأماكن التي وضعوها فيها ، لأن المجلس استأجر هذا المراقب حتى الساعة ٣ فقط، ووزارة السياحة المسؤولة عن قصر المؤتمرات تريد أن تخلي المكان لدواعي الأمن ..

طيب أين ننقلها ؟ في المراقب الخارجي في طريق النصر الذي يبعد عن قاعة المؤتمر أكثر من ألف متر !!

طيب يا باشا شوف لنا حل ! وهكذا نتمنى الحل من الباشا العسكري !

الحرص على البعد عن اللب

كانت المناقشات أحياناً ما تفقد المناقشين بإلحاح إلى ضرورة حسم "لب" القضايا الجوهرية في الحوار الوطني كله ، وعند هذه اللحظة سرعان ما تجد ضباط الإيقاع المتصلين سرا بالعسكر يطلبون الحديث باسم نقطة النظام منبهين الحضور إلى أن هذه النقطة ستناقش باستفاضة في جلسات اللجان المتخصصة فيما بعد ؛ ومن ثم فإنه لا يجوز مناقشتها الآن ولا تناولها ، ومن ثم فإنه لا يجوز البتّ فيها بأي رأي ولو من باب وضع البدائل .

جنن لاستعراض المواهب الجمالية

لم تخل هذه الجلسات شأنها شأن غيرها من كل مجتمع بشري من رجال وسيدات جاءوا وجئن لاستعراض المواهب الجمالية والشكلية دون أن تكون عندهم أدنى صلة بأي محور من المحاور.

وبالطبع فقد أصبح بعض هؤلاء فيما بعد أعضاء برلمان وذوي حيثيات.

الفصل التاسع

مونولوج السلطة

كان الرهان الطبيعي للمجلس العسكري هو العنف، ولم يكن أحد من المصريين يدرك سطوة هذه الحقيقة على نحو ما كان يدركها الأمريكان، وليس معني هذا أن الأمريكان أفضل أو أعظم من المصريين، لكنهم بلا شك أعلم منهم وأقدر على صياغة التشخيص ذي الأولوية.

وعلى الرغم من اختلافي مع الأمريكيين في كثير من التشخيصات العمومية والتشخيصات الجزئية، فلا بد لي من الاعتراف بأن تركيزهم على إدراك وجود العنف واستخدام العنف كان عبقرياً بكل ما تعنيه كلمة العبقرية.

لم يحقق العسكريون أي نتيجة من نتائج الارتقاء الفكري المتوقع من الحوارات التي دعوا إليها وأداروها ونسقوا موضوعاتها ورسوموا خططها، بل على العكس من هذا كله كانت هذه الحوارات دافعاً لهم للجوء إلى العنف، ذلك أنهم كما رأيت لم يكونوا سعداء بأن ثمانين في المائة ممن حضروا معهم جاملوهم و وافقوا على طرحهم، وإنما كانت هذه السعادة تتلاشى تماماً لأن عشرة في المائة عارضوهم وأرشدوهم إلى الصواب، وعشرة أخرى في المائة أظهرت التعجب من أسلوبهم في الحوار والتعامل مع نتائجه.

الإيمان بالعنف

وهكذا كانت الحوارات تعيد المجلس العسكري وأجنحته المختلفة إلى العنف، والتفكير في العنف، والإيمان بالعنف، والعودة إلى استراتيجية أخرى هي باختصار استراتيجية صبورة وملحة تستهدف الحصول على الإذن الأمريكي بالتغاضي عن العنف، وكانت هذه الاستراتيجية تحتاج إلى تركيم (ولا نقول إلى تراكم فحسب) أدلة كثيرة تؤيدها وتجعلها أمام الأمريكيين (المخابراتيين والرسميين والدبلوماسيين) بمثابة البديل الوحيد.

وهكذا انتهى الحال بالمجلس العسكري إلى أن يحذر من قوة الإسلام ومن الإسلام وأن الإسلام هو البديل الوحيد المتاح.

بدأ العسكريون منذ مرحلة مبكرة خطوات مترددة في هذه الاستراتيجية مع المراوحة بينها وبين استراتيجيات أخرى من قبيل تكوين جماعات موالية لهم أو إنعاش جماعات مناهضة بشدة للإسلام أو إحياء اليسار الماركسي المنكر للدين والكاره للإسلام ومع هذا كله فقد أضافوا عنصرا تقليديا من صراعات الطوائف فأبلغوا تهديدهم واضحا وصريحا للمسيحيين : إما أن تمشوا وراءنا وضد الإسلام ، وإما أن نقتلكم ونقول إن الإسلام السياسي هو الذي تقتلكم.

الترهيب المدروس

ولا شك أن الاختيار في هذه الحالة محسوم للتبعية مهما كانت درجات الوعي والتجربة عند المسيحيين، ومهما كان ألمهم من حادث مثل ماسبيرو ومن أحداث أخرى غير ماسبيرو، وليس هذا دفاعا عن المسيحيين، كما أن أي دفاع عنهم يتوارى خجلاً من موقف شخصيات باعت نفسها للشيطان مثل ذلك الرجل المنفوخ الذي اجتمعت له ثلاث عذميات : فقد كان عديم الخبرة ، وعديم التجربة ، وعديم البصيرة.

وبالطبع فإن استراتيجيات العنف العسكري التقليدية كانت تتضمن تجديد مخاوف المسيحيين من أن لآخر مع إظهار قدر أكبر من المودة لهم من أن لآخر أيضا.

وعلى سبيل المثال ، إذا كان راعي كنيسة دمياط الجديدة هو الذي اشتكى من العبارة التي وجدها مكتوبة على ساحة الأرض في وسط الكنيسة مهددة بقتل المسيحيين، فإن التحقيقات والبحث في الشرائط سرعان ما أثبتت حقيقة مفزعة ، وهي أن ابن القسيس هو الذي كتب هذه العبارة !

وأيا ما كانت دوافع ابن القسيس ، حتى وإن كانت دوافع مسرحية هزلية؛ فإن "شجرة" الصورة النمطية الكاذبة كانت "تسقى" من أن لآخر حتى لا تموت، وذلك لسبب واحد هو أن العسكريين يتغذون بثمار هذه الشجرة على نحو دائم.

الأمريكان يحذرون

كان الأمريكان حين اندلعت الثورة في يناير ٢٠١١ قد حذروا القوات المسلحة سرًا وعلنًا من استخدام العنف ، وقد بنى الثوار وبنى الشعب حساباتهم على هذا دون أن ينتبهوا إلى حقيقة أن السياسة الأمريكية نفسها قابلة للتغير بناء على مبررات، وسواء كانت المبررات كاذبة أم صادقة، ضعيفة أو قوية ، فالمهم أن تكون هذه المبررات في النهاية تصب في مصلحتهم كأمركيين أو في مستقبل مصالحهم.

وهكذا بدأت الأصابع الشيطانية والمنتشيطنة ترسم خططاً دؤوبة وطويلة المدى للحصول على ما يدعم الفرضية الخاصة بأن الاسلاميين قادمون، ومعنى أن الاسلاميين قادمون أن المغتصبين سيئدمرون.

وبالتالي فإنه بدلاً من أن تحدث معركة يموت فيها مائة ألف من المغتصبين ومثلهم من المسلمين ، ومن ثم فإن الأولى أن تحدث مذبحة يموت فيها مائة ألف من المسلمين ولا يموت فيها أحد من المغتصبين.

وكانت هذه في نظر الأمريكيين قمة من قمم الإنسانية على طريقتهم في نفي الإنسانية عن غير المغتصبين.

ووجدت هذه النظرية المشوهة دعماً مستميتاً من أنصار فكرة البيوجينية التي تحور المعاني البيولوجية من البقاء للأصلح إلى البقاء لشعب الله المختار، ومن الانتخاب الطبيعي الى انتخاب المعادي للإسلام وحده، ومن حقوق البشرية إلى حقوق الشعوب غير الإسلامية، ومن حقوق الإنسانية المقننة إلى حق الإنسانية في القضاء على الإسلام.

ومع أن درجات التصريح بهذه الفلسفة كانت أقل من درجات الأداء المنفذ لها، إلا أن التصريح كان يفلت في أحيان كثيرة زاعقاً وناهقاً.

لكن المشكلة الحقيقية التي كانت تفرض نفسها على الساسة، هي أن بعض القوات المسلحة المصرية التي سيناظ بها تنفيذ هذا العنف، ليست مستعدة تماماً لأداء هذا الدور لأسباب دينية وعاطفية وفنية أيضاً.

دور الصحفي القديم الحقود

وهنا جاء دور المتشيطيين من أمثال الصحفي القديم الحقود الذي عاش حياته خصمًا للإسلام ولمستقبل الإسلام هو أن تجزئة المهام القتالية المعادية للشعب كفيلة بأن تجعل المشاركين لها لا يدركون حرمتها ، وهو الأسلوب الذي اقتنع به نظام عبد الناصر ومارسه على أوسع نطاق، بل وأضاف إليه كثيرا من الإبداعات ، وفي هذا النظام فإن ترديد وتعميق المعاني الزائفة كفيلة بأن يغطي على المعاني الحقيقية :

- فالهزيمة تصبح في تعريفه نكسة
- والانسحاب يصور بصورة تعنى أنه تحريك قوات
- وخروج القوات الجوية من المعركة بسبب تدميرها يصور على أنه التعويل على فعالية الدفاعات الجوية الأرضية.
- والقتل على الهوية يصور على أنه تنفيذ فوري للقانون.
- والاستسلام المهين يصور على أنه حفاظ على القوة البشرية.

وإذا انتقلنا بهذه المفاهيم الناصرية إلى المعركة الجديدة مع الثوار

- فإن لقاء أي مصري (غير عسكري) مع الأمريكيين يعتبر تخابراً
- والمعونات الأمريكية (غير العسكرية) تسمى كلها بالتمويل الأجنبي .
- ولقاء أي عربي من غير المشاركين في الثورة المضادة يعتبر خيانة للوطن.
- والحديث مع أي فضائية تصور الحقيقة على خلاف ما يريد المجلس العسكري يعتبر عداء صريحا لمصر.
- ووصف الخطأ الذي يصدر من عسكري بأنه خطأ يعتبر خيانة عظمى.
- والحديث عن شرعية غير شرعية الدبابة هو تفويض مؤثم لنعمة الاستقرار والأمان.
- والمطالبة بالحرية هي تأمر على الأمن القومي .

الفصل الثامن

كونشرتو المستشارة

نبدأ هذا الحديث بما تعلمناه من أستاذنا الدكتور حسين فوزي رحمه الله عن كونشرتو الآلة الواحدة (Concerto) ولتكن هذه الآلة هي الكمان، أو باللفظ الأنسب لقصتنا : الكمنجة . وكونشرتو الكمان هو نوع من التأليف الموسيقي الغربي الكلاسيكي الذي وضع لهذه الآلة وحدها ، حيث تقوم الكمنجة بأداء الدور الرئيسي، أما الفرقة فتكون مرافقة فقط . وقد كثرت إبداعات أعلام الموسيقى الكلاسيكية في الكونشرتات التي لا تزال تقدم على المسارح ، كما برز عازفون مبدعون لأداء هذا اللون، لكننا كنا لا نزال نفتقده في السياسة المصرية المظهيرية إلى أن جاءت هذه السيدة التي استغلته الثورة المضادة أعنف استغلال لسبب واحد ، هو أنها كانت مؤمنة إلى حد اليقين بضرورة و إلحاحية فكرة الثورة المضادة .

كما نعرف فإن الكونشرتو من ثلاثة أجزاء:

- الجزء الأول: (Alegro) وهو أهم الأجزاء الثلاثة وأطولها ، وعادة ما يكون سريعاً.
- الجزء الثاني: (Andanti) وهو لحن هادئ الحركة يقترب من شكل الأغنية.
- الجزء الثالث: (Pritesimo) وهو الأخير، يكون بأسلوب اللحن السريع والذي يعطي العازف المنفرد فرصة التجويد في أداء الأدوار سريعة الإيقاع بما يعبر عن مدى تمكنه من الأداء والإبداع .

وفي الحقيقة فإن أداء هذه السيدة كان تعبيراً شعبياً متقدراً بل عبقرياً ونادراً عن أسلوب الكونشرتو ، وقد قادها أدائها الفطري أو الغريزي في النهاية إلى ثلاثة انتحارات ، انتحار وظيفي لا شك فيه، وقد كان الكل (وفي مقدمتهم رجال القضاء) يتمناه لها للخلاص منها ومن وجودها بينهم فحقته هي ، وانتحار سياسي لا علاج

له ألبتة، وانتحار انساني أصعب من الانتحارين الأولين لكنه يتناسب مع معتقداتها ومعتقداتها الناصرية التي تعشق الهزائم مع تغطيتها بالصوت العالي .

كيف بدأت المستشار الكونشرتو

عقب إعلان تنحي الرئيس مبارك خرجت من الاستوديو فإذا بي أمام السيدة المستشار ، وإذا بها قد بدأت تحدث نفسها و تصوغ أفكارها في الشماتة من الرئيس المتنحي وتحاول وهي تحدث نفسها بصوت عال أن تشكل لهذه الأفكار إطاراً قانونياً من دون جدوى ، ثم إذا بها شأن كل أصحاب الرؤي او الهوي تعود إلى مخزونها القديم من الأفكار .. وجلست في سعادة بالغة أتابع هذه العملية الذهنية التي تقوم بها هذه السيدة في فضاء سياسي مفتوح من دون أن يكون لحوارها مع نفسها من الفهم السياسي المقدر لحركة الشعب ولثورة الشعب أي تقدير أو حساب .

وقد كان من الواضح انها لا تزال أسيرة الماضي الذي من المفترض أنه قد انتهى بتنحي الرئيس ، كانت فيما تشاور به نفسها كأنها تريد أو تنوي أن تعبر لجناح من اجنحة القوة في نظام مبارك عن سعادتها بفوزه على الاجنحة الاخرى .. وكانت تتلمس الطريق بحيرة شديدة إلى أن وصلت إلى القول بأن المشكلة ليست في السنوات العشر الأخيرة وحدها ، ثم إذا بها تقول بلا مقدمات او تسييب : بل المشكلة في الثلاثين سنة الأخيرة ، و إذا بها بعد دقيقتين من هذا القرار الأخير تقول بل في الأربعين سنة الأخيرة وهنا أضافت تسببها رهيبا فقالت : نحن نعيش منذ ١٩٧١ في ثورة مضادة .

أول تفكير في الثورة المضادة

ابتسمت إلى اقصى ما يمكن لي أن ابتسم من دون أن اضحك ، أي انني تماكنت نفسي فلم أحدث صوت الضحك ولا ملامحه وإنما اكتفيت بالابتسامة العريضة في قلبي ، فهذه هي إحدى الناصريات أو الناصريين المجروحين (بالوراثة) مما سمي ثورة أو حركة ١٥ مايو ١٩٧١ التي قادها السادات ، وتخلص فيها من بعض وراثة تركة عبد الناصر تبدو لأول مرة وكأنها عاشت أربعين سنة تتربص بالسادات دون

جدوى ، وها هي اليوم تحاول أن تشفي غليلها من السادات بأن تقول إن الرجل الذي اختاره السادات قد انتهى ، وأن عصر السادات بالتالي قد انتهى الى غير رجعة.

كان من المتعارف عليه في حياتنا السياسية أن أقطاب ما سمي باليسار الناصري المكتوبين بـ ١٥ مايو ١٩٧١ كانوا يكررون من باب الشياكة الايدلوجية أن ما فعله السادات في ١٥ مايو كان ثورة مضادة ، وها هي السيدة التي كانت في وقت الحدث اي في ١٩٧١ جامعية صغيرة مفتونة بحركيات ما تبقى من خلايا التنظيم الطليعي تؤثر اليوم للجوء إلى هذا اللفظ المتاح ، ثم تبدأ في الأيام التالية مع أقرانها وقريناتها محاولة لتصوير ٢٥ يناير على أنه ثورة على ١٥ مايو و من ثم فانه رجوع إلى ٢٣ يوليو ، وكأننا لا بد أن نعيش مرحلة خطوة تقدم للأمام وخطوة للعودة ونحصر بين خطوتين فقط دون أي تطور أو تقدم أو تغير .

كان من الصعب عليّ أن أحاول أن أناقش مثل هذا الفكر الذي هو فكر مقيد لنفسه ومعاد لنفسه أيضا وليس بحاجة إلى إفهام أو تعديل ، لكنني من باب المعابثات التي يقال إنني أجيدها رأيت أن هناك أسلوباً آخر كفيلاً بأن يسفه للسيدة المستشارة كل ما سوف تنادي به في المستقبل القريب ما دامت قد اختارت هذا المربع للانطلاق منه في موقفها من الثورة الشعبية الهادرة .

من أفناهم الزمن

وعلي حين فجأة منها قلت بمنتهى الأدب والتواضع إن المشكلة حسب تشخيص سيادتكم ستعقد أكثر فمن أين لنا بهؤلاء الملتزمين ايدولوجيا وهم قد أفناهم الزمن بعد أن ابعدهم ١٥ مايو ؟

كان السؤال واضحا لا يحتمل الهروب ولا يحتمل التأويل إلى درجة أن السيدة المستشارة لم تجد إجابة له إلا بقولها : على رأيك .. أي أنها موافقة على هذا الذي اقول وأنه ليس هناك رصيد لتوريد من تراهم سيادتها قادرين على إعادة الثورة إلى عصرها الزاهي قبل ثورة ١٥ مايو ١٩٧١ المضادة !

صحيح انها كانت تعتبر نفسها بقية من بقايا السف الناصري الصالح (حسب رأيها وان لم تعبر بالطبع بهذا اللفظ السلفي) لكن أمثالها نادرون !

وهكذا بدأت السيدة تفكر وتفصح عما تفكر فيه بكل صراحة حتى إنها قالت ما ظلت تقول به ولا تزال تقول به حتى الآن وهو أنه للأسف الشديد فليس في الساحة السياسية إلا الاخوان المسلمون والاسلاميون الآخرون الأقل كفاءة منهم .

لم تكن مستعدة

حاولت أن أشرح لسيادتها أن مصلحة الوطن تقتضي منا الآن أن نساعد هؤلاء حتى نستطيع بناء تجربة ديمقراطية وأن المساعدة لا تعني حتمية الانضواء تحت قيادتهم وإنما تعني أيضاً تعليمهم من خلال النقد المعلم والموجه لا النقد المفترى أو النقد لمجرد النقد ، لكن السيدة المستشارة لم تكن على الاستعداد للقبول بما أرى ولا التنازل عما تعتقد .

لجأت مرة ثانية إلى معاتبة أو معابثة من نوع ثان ، وهي دعوتها إلى تأييد مبارك ونظام مبارك وعدم الانضمام للثورة فقد يكون هذا أفضل عن حالة الضياع !!

لكن إجابتها لم تخرج عن فكرة شائعة وبسيطة تقول ما معناه تقريبا: هل تدعوني لأن أنتازل عن هذه الوليمة الفاخرة ، والاكتفاء بالأكل من بقايا الطعام المتروكة من أول أمس ، بعد أن أخذ من كانت تصورهم علي انهم الطفيليون نصيبهم منها ولم يتركوا منها إلا القليل مما يصلح ..

وهكذا كان جوهر حكمها على ما تركه مبارك ونظامه !! وذلك على الرغم من أن كل مجدها كان على يد مبارك و نظامه .

السرد والدراما

في ركن قصي من الحجرة التي دار فيها حوارى مع السيدة المستشارة كان يجلس أديب من أشهر أدباءنا عاش في الغرب ، وعرف معنى الديمقراطية ، ومعنى ما كنت أتكلم به وعنه، وكان سعيدا ومنتشيا إلى أقصى الحدود بطريقتي في المناقشة على

الرغم من أنه لم يكن من عشاق كتابتي ، وإنما كان يقدرني فحسب ، وبقدر محدد يتوقف عند حدود الفكر لا الفن ، وعند حدود العلم لا الإبداع ، لكنني أحسست في تلك الليلة أنه بدأ يتحول الي الاعجاب بفتي أيضا ، فقد كان وجهه يشرق وكانت أساريره تشجعني ، وكأنه في تلك الليلة كان يكتشفني .

وإذا به بعد أن تركتنا السيدة المستشارة لتدخل الاستوديو يعاجلني بقوله : لقد عرفت الآن لماذا أنت منصرف عن الابداع في فنون السرد ، فأجبتّه بسرعة معتادة في مثل هذه الحوارات بأني منصرف لأنني فاشل في هذه الفنون لا أعرف ولم أعرف ولن أعرف ، فابتسم نصف ابتسامة ، وقال : انتبه يا دكتور فأنت الآن تحدث أدبيا محترفا يعاني وهو يكتب من أجل الفوز بالتقدير ولا تحدث مستشاراً يكتب قرارات وأحكاما ، ويعرف أن ما يكتبه سوف ينفذ !! ، ثم استطرد مبتسما وقال : سأجيبك بنفس طريقتك التي رأيتها منك الآن ، وأقول لك انك تحب الدراما ولا تحب السرد ، فما كان مني إلا أن أجبتّه بسرعة بالغة: إنني في الدراما أكثر فشلاً مني في السرد، ولست أدعي هذا ولا ذاك ..

أربع سنوات

قال الرجل الحكيم : ربما تمر عليك أربع سنوات حتى تعرف قيمة ما تحاورت به الآن ، وساعتها ستعرف أنك تعتقد انك فاشل لأنك لم تمارس الفن في معبده وإنما مارسته في الصالونات حيث المجد للجاه لا للفن .

وكان الاديب الروائي العظيم كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح ذي حروف كبيرة

الفصل التاسع

ترانيم التوجس المبرر

كان العسكريون الذين دعوا إلى اللقاءات مع المدنيين أو حضروها أو استضافوها يبدون في غاية التوجس من المدنيين ، بل كانوا أحيانا ما يبدون وكأنهم يقابلون هؤلاء المصريين لأول مرة، وإذا قلنا إنه كان هناك احترام صناعي ومفتعل ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن هذا التعبير قد وصف الصورة كاملة ، فقد كان الاحترام مشوبًا أيضًا بخوف من نوع عميق، وكان هؤلاء المدنيين القادمين إلي العسكريين يشعرون وكأنهم يريدون منهم أن يتركوهم ليفتشوهم مع ما في التفتيش من إهانة ومن كشف عما هو مستور.

و كان هؤلاء العسكريون حريصين على تقليل ما يبوحون به ، ولو أنهم باحوا لاستراحوا ، لكنهم كانوا بعيدين جدا عن فكرة التحرر من الشكوك والشكاوى على حد سواء.

كانوا قد سمعوا عن "الوضع المختلف للجيش" في الدول الأوروبية أو في الدول الديمقراطية ، فاكتشفوا من دون عناء ومن دون مناقشة أنه لا يمكن لهم أن يقبلوا بهذا الوضع، وهم لا يهتمهم كلمة الديمقراطية ولا معناها ولا النظام الديمقراطي ولا اكتماله ، وإنما يهتمهم أن يحافظوا على "المعطيات" التي تضمن لهم أمنا مما رأوه يحدث أمامهم لحسن مبارك الذي كان يفوقهم حنكة وخبرة ومجدًا، ومع هذا فإن تكثيف المظاهرات والهتافات ضده أدى إلى سقوطه.

أيام غير قابلة للتكرار

من هنا أراد العقل الباطن للعسكريين أو لمعظمهم أن يقول للشعب المصري إن الثورة تحدث مرة واحدة فقط، وإن ٢٥ يناير غير قابلة للتكرار مهما كان الثمن.

لهذا فقد تحول توجه بعض العسكريين من البحث عن مستقبل الوطن الذي أقحموا أنفسهم على مناقشته (فيما يدعون إليه من مناقشات) إلى البحث عن شرعية أو آلية تمنع عنهم السقوط ، ومن قبل منع السقوط منع الثورة نفسها أو منع المظاهرات والتظاهرات بل منع التجمعات.

كان هذا التفكير يشغل بال بعض العسكريين تماما ، وهم جالسون إلى المدنيين، بينما المدنيون مشغولون بالزوايا الأخرى في قضية الوطن ولا يكادون يتصورون أن هذا الهاجس هو الشيء الوحيد الذي يشغل بال هؤلاء المحاورين الذين استضافوهم ليستمعوا إليهم .. ولهذا السبب بدا بوضوح أن هناك مفارقة طريفة لا توجد إلا في مثل هذا الظرف .. فالمفارقة كانت أنه وجدت صورتان من النتائج الشكلية:

- فأولاً لا يوجد هناك اختلاف واضح يستدعي السجال أو يستدعي رفع كل طرف لأسانيده وبحثه عن تأييد واضح لها ، وإنما الأمور تمضي في هدوء..
- وثانياً فإن كل هذه الاجتماعات لم تنته إلى ظهور شيء واحد محدد تم الاتفاق عليه أو حتى تم بلورة الاختلاف عليه في نقطة واضحة إما وإما.

الشعارات البراقة

وهكذا كثرت الشعارات البراقة (التي هي مملّة أيضاً من كثرة التكرار) من قبيل الحفاظ على المكتسبات، وقد كانت هذه الجملة بالذات كفيلاً بتنبيه المدنيين إلى حقيقة وجوه رغبات العسكريين الدفينة ، لكن بعض المدنيين ظنوها (بحسن نية) حفاظاً على ما تحقق بالتدريج في عهد حسني مبارك من تقدم في ملف الحريات، والقانون، والتكافل الاجتماعي، وحرية رأس المال، واحترام الملكية، والبناء على ما سبق من مكاسب، بينما كان العسكريون يقصدون ما صار إليه وضعهم بما فيه من مكتسبات الاستثناء في المعاملة وفي توفير الإسكان وفي المعاشات وفي الفنادق والمصايف والمشاتي، والمستشفيات، والجمعيات الاستهلاكية، والمؤسسة الاقتصادية، ومعارض السلع إلخ).

ومع هذا ، فإن الإخلاص "المخابراتي" للماضي استطاع أن يجد منفذاً من خلال علاقته بالصحافة، فقد كان هذا الإخلاص المخابراتي في ظل عجزه عن الإبداع قد وصل إلى مرحلة من إقرار مشروعات المعارك المفتعلة التي يعرضها عليهم مجموعة من الكتاب الذين عرفوا بقدرتهم على تحريك الشرور في المجتمع تحت مسميات مختلفة ومتنافرة من قبيل:

- إلهاء الجماهير .
- هز المعتقدات الايمانية [الرجعية] .
- التمهيد للتطوير القادم.
- إضعاف المؤسسات وبخاصة تلك المرتبطة بالدين والأخلاق.
- خلق حالة من الصحو الكاذبة أو الصراع الفكري المصطنع.

وهكذا كانت الكرة الخاصة بأي لعبة أو مباراة من هذه المباريات تنطلق بصافرة من جهاز تابع للدولة حتى وإن كان خفياً أو غير معروف ثم تمضي الأمور في تصاعد مخطط.

الحرص على التبرؤ

ومن الإنصاف أن أذكر في هذا المقام أن عدداً من الصحفيين الذين يعتبرون الآن من أقطاب الحالة الانقلابية ورموزها ومستثمريها كانوا في غاية الضيق من أن تنحصر فرصتهم للنجاح المهني في هذا المسار الذي فرضته عليهم تلك الممارسات الأمنية، وقد تبدي حرصهم على إظهار ضيقهم من خلال وسائل عديدة ازداد إقبالهم عليها ولجوؤهم لها طيلة فترة المجلس العسكري.

وهذا ما دفعني إلى الاستطراد في هذه الجزئية لأصل إلى بعض الآليات التي تثبت أن أقطاب الألعاب الانقلابية كانوا حريصين على التبرؤ منها بطريقة واضحة وإن لم تكن صريحة.

على سبيل المثال ، فإن مجلة أسبوعية اشتهرت في حقبة التسعينات بأنها إذا نشرت أخبار قضية وصلت إلى حدود أقسام الشرطة أو مباحثها أو تحرياتها كانت حريصة على أن تذكر رقم وتاريخ المحضر الذي سجل هذه الأحداث أو الوقائع أو المخالفات .. وهي في مثل هذه الخطوة قد تبدو للوهلة الأولى وكأنها ساذجة حين نقلت النص الذي اختصها به البوليس (دون حذف لرقم المحضر وتاريخه ... إلخ) ، لكنها في حقيقة الأمر كانت تريد أن تقول إن الشرطة هي التي أعطتها المحضر .. وكلمة الشرطة هنا قد تترجم عند الجماهير بأمن الدولة. وقل مثل هذا في تحريات الرقابة الإدارية والجهة السيادية ... إلخ.

الرسالة وظيفية

كانت الصحافة إذاً تلعب في هذه القضايا ، وهي تعلن أنها محترفة وليست هاوية. بألفاظ أخرى فإنها تؤدي وظيفة ولا تؤدي رسالة . وقد تطور هذا الأمر في عهد مبارك إلى أن صارت صفحات الصحف ميداناً واسعاً لصراعات الأجهزة الرقابية والمخابراتية.

أذكر حملة كبيرة كانت الرقابة الإدارية وراءها، وبات من المحقق أن الوزير المقصود بهذه الحملة لا بد أن يستقيل بعد أن هاجمته الصحافة ونشرت من المستندات والتحقيقات والوقائع ما يدينه، وبينما كنت أنا (أو غيري) ينتظر سماع إقالة رئيس الجمهورية لهذا الوزير القديم ، إذا بنا نسمع خبر إقالة رئيس الرقابة الإدارية نفسه وهو عسكري سابق، وقد جاء هذا الخبر كخبر ثانٍ للخبر الأهم وهو تعيين لواء آخر رئيساً للرقابة الإدارية .. وقد كان الآخر قائداً معروفاً ليس فوق مستوى النقد فيما يتعلق بصورته عند الجماهير المتصلة بالتعاملات الاقتصادية مع القوات المسلحة.

البحث عن غطاء

كانت مناقشات العسكريين تتوق أو تتعطش بشدة إلى أن تجد الغطاء القانوني والثوري لمثل هذا الإجراء الذي لا بد أن تلجأ إليه ذات يوم لإيقاف تيار ما عند حده سواء تمثل هذا التيار في فكرة أو في ممارسة أو في قضية . وعلى الطرف الآخر ، كان شباب الثورة يعرف ويوقن أن العالم المتقدم تخطى مثل هذه المعضلة بما ضمنه

من حرية الصحافة وحرية الحصول على المعلومات ، وحرية كشف المنحرف ، حتى من بين الصحفيين الذين يحققون في قضايا الفساد فيغريهم الفساد بالانحراف عن غايتهم إلى مسار يبدو أكثر أمناً وتأميماً وربما .

ومن العجيب أن البعض من مستويات مختلفة كانوا يقنعون العسكريين بضرورة أن يكون هناك صاحب قرار ينفذ معايير لا تخضع للمنطق ولا للرأي العام ، وإنما تخضع لشيء غامض، قد يسمى القانون ، ولكنه في حقيقته سيادة رجل الدولة.

كان بعض أهل القانون حريصا على أن يوحي بأنه يرى أن سيادة القانون تتمثل في سيادة الدولة وينفي بكل ما يستطيع الفكرة الأصلية ، وهي أن سيادة الدولة تنبع من سيادة القانون وكان الفارق بين الرئيتين يتمثل في عنصر القوة اللازمة لسيادة القانون . وكانت القوة تنحصر في القوات المسلحة ومن تمنحه هي الصلاحية لأن يملك القوة في لحظة معينة في موضع معين. وقد لاحظ كل من حاور العسكريين في تلك الفترة حرصهم على أن يُظهروا "الشرطة" في صورة "عبد المأمور" ، وأنهم هم الأمرون .

ومن الطريف أنني في بعض أحاديثي كنت قد أشرت إلى أن الشرطة كما ينص قانونها "قوات نظامية" وأنها ليست عسكرية. وأن التظلم من قرارات الوزير في إحالة قادتها للتقاعد يكون أمام مجلس الدولة وكم من لواء عاد بعد أن أحاله وزير الداخلية والمجلس الأعلى للشرطة للتقاعد. و هكذا فإن بعض العسكريين قد وجد فيما ذكرته من تعبير القانون بمصطلح "قوات نظامية" فائدة ومفتاحاً لشرح ما يتصور ، فكتبها في ورقة وقرأها في أكثر من مناقشة، وبالطبع "الحاتمي" في الكرم المصري ، فإنه نسب المقولة إليّ أنا لا إلى القانون ..

ولم يكن المقصود من هذا كله إلا التأكيد على المعنى العميق الذي كان غاب عن المجتمع المصري في نهاية عهد مبارك، وهو أن الشرطة تستمد قوتها من القوات المسلحة وليس من ذاتها .. ومع أنني لم أرد هذا المعنى بما رويت ، فقد أصبح المعنى مسيطراً على أحاديث عدد من كبار قادة القوات المسلحة ينبهون به المجتمع والشرطة والقوات المسلحة على حد سواء أن مصدر القوة مصدر واحد فقط. وكان أساتذتنا المخضرمون ينظرون إليّ وهم بيتسمون من أنني أصبحت دستورا أو كالدستور.

الفصل العاشر

أسطوانة النشيد المشروخة

كنت في استوديو الهواء في قناة فضائية مصرية مملوكة لغير الدولة ، وإذا بحالة من الكهربية المفاجئة تنتاب المذيع عندما استمع المذيع إلى ما ألقى إليه في سماعات الاذن التي لا يسمعا مشاركوه في الاستوديو ولا المشاهدون .

وفي مثل هذه الحالات فإن الاستفسار عن السبب والاجابة على السؤال لا يستغرقان إلا بضع دقيقة ، أي جزء من دقيقة (أعرف أن القراء يعرفون المعنى لكنني أخشى أن تتحول بضع التي تسبق الضاد فيها إلى بعض التي تسبق العين فيها ويبدأ المدقق اللغوي في تعديل دقيقة إلى دقائق بينما الأمر كله أقل من نصف دقيقة (وإذا بالمذيع المهذب بعد أن انتهى التقرير المعروض يعلن لجماهيره أن عنده مفاجأة لهم.

وكانت المفاجأة أن الخال (!!) سيلقي عليهم قصيدة ، وأهلاً وسهلاً بالخال، ثم هو يقول : ما هذه المفاجأة الجميلة أيها الخال ؟..

هكذا أدخل المذيع الخال إلى الاستوديو عبر التليفون ثم بدأ وصلة مدح في الخال وفي شعر الخال وأخلاق الخال ، و خال الخال وأنا متعجب من أن يأتي حظ هذا المذيع الذي لم يكن يبدي أي احترام ولا تقدير للخال ولا لشعره في أن يكون هو الذي يتولى تعميد الخال عقب عزل الرئيس مبارك مباشرة .

كان الخال قد صرح ببعض القصيدة التي ألفها على عجل كما يفعل دائماً ، أو ربما نشرها كلها ، وها هو يلقي بعضها في المساء أو يلقيها كلها ، ومن المعروف أن أداء الخال للشعر الذي كان يضعه حسب الظروف كان جزءاً من الشعر نفسه ، اي أن شعر الخال يستلزم إلقاء صاحبه له وإلا فقد كثيراً من محتواه ، فللخال وقفاته ونبراته ، وللخال إبطؤه وإسراعه ، وللخال زعيقه واستجداؤه واستفساره وقطعه و وصله ويقينه وحيرته .

أصبح جزءاً من هذا الشعر

ولهذا كله فإن إلقاء الخال لشعره أصبح جزءاً من هذا الشعر على الرغم من أن للخال كلمات غناها كبار المطربين .

على الرغم من هذا كله فإن المستوى الفكري والشعوري في أعمال الخال مختلف جداً ومتباين جداً ، ويبدو انه يظهر بوضوح او بصراحة أثر البيئة التي سبق له الجلوس فيها قبل أن يكتب ما يكتب من شعر ، وهو معنى واضح تماماً في قصائد الستينيات والنكسة والقدس والمسيح .. الخ .

لكنتي كنت في أشد العجب من هذا الاندفاع إلى اتخاذ الخال أو صناعته لموقف النقد الشامت في نظام مبارك ، فلم تكن معلوماتي عن علاقة الخال بنظام مبارك وداخلية مبارك وثقافة مبارك تتوافق مع هذه الحال الحادة من النشوي التي انتابت الخال في نفس اليوم الذي تنازل فيه مبارك عن سلطاته وقد كان وارداً ألا يتنازل .

الحياة حافلة بالنفاق

كنت على سبيل المثال ذات مرة في ضيافة أحد المسؤولين الكبار وهو يتصل ببيت الخال قبل أن يغادر القاهرة على (ما قيل إنه) طائرة خاصة إلى باريس للعلاج ، وكانت على الخط الآخر زوج الخال التي أصبحت بعد ثورة يناير رئيساً للتلفزيون لفترة قصيرة ، وكان المسئول الكبير يطمئنها و يطمئن منها على ما أتمته الدولة من استعدادات ، وكان لسبب طبي قاهر (يتعلق بصحته) يكلمها والميكرفون مفتوح ، بحيث اني دون داع كنت استمع المكاملة من طرفيها ، ولم يكن معي أحد .

وقد أسعدني ولا أقول أدهشني أن كل أجهزة الدولة ساهمت في ذلك اليوم في تحقيق كل ما هو ممكن وغير ممكن من أجل علاج الشاعر واقامة مرافقيه في باريس وانتقالاتهم واستقبالاتهم .

وكان الذي أسعدني هو إمكان أن تمتد عدوى العناية بالبشر تدريجياً وهو أمر أتمناه و أتحراه ..

لكن المعنى الذي كان واضحاً من تضافر هذه الأجهزة أن الرئيس حسني مبارك بنفسه هو الذي أمر أو وجه وتابع بحيث أصبح الجميع حريصاً على أن يثبت أنه نفذ الأوامر .

في ظل هذه المعلومات السابقة وغيرها لم أكن أتصور أن يوجه الشاعر كل هذه السهام إلى مبارك وعهده واصلت في تشويه صورته إلى حدود غير مسبوقه . .

وكنت مندهشاً من كمية الحفاوة التي يبديها المذيع الذي كنت أعلم بعض رأيه في الشاعر وشخصيته وعلاقاته وشعره أخيراً ، فلما انتهى الشاعر وخرجنا من مواجهة الجماهير إلى فاصل أشرت بعلامة الاستفهام للمذيع ، فقال بابتسامة جاهزة : بعدين .. أي أقول لك فيما بعد الحلقة.

وفيما بعد عرفت ما أنا أسف لكتابته هنا بهذه الحروف ، وهو أن الشاعر جزء من المخازن أو المهمات التي استولى عليها المجلس العسكري أو وضع يده عليها وأنه من الآن سيكون على هذا النحو في مواكبة الأحداث .

كنت أعلم أن ظروف صحة الشاعر قد تمكنه من المواكبة لكنها ربما لا تمكنه من التأقلم السريع مع ما هو متوقع من الأحداث في مثل هذه الظروف .. لكن مرور الزمن كشف لي أن قدرته على التأقلم كانت أقوى من قدرته على التألم .

الاستشارات التي تتعلق بالمبدعين

كنت أعلم أيضاً أن هذا الطاقم الجديد من أصحاب السلطة لا خبرة له في الاستشارات التي تتعلق بالمبدعين ، فإذا بي أكتشف أن خبرات الطاقم الجديد تفوق خبرات طاقم مبارك الذي كان يقف عند حدود قصوى في الصرف والمنح ، لكن هؤلاء لا يعرفون إلا الإفراط حتى وإن حرصوا على أن تكون صورتهم أقرب إلى القصد أو الاقتصاد .

كنت أعلم أن المحتوى الفكري للمرحلة القادمة أصعب من أن يخضع لتصورات الشاعر السياسية ودينامياتها وآلياتها والميل الاضطراري الي نحو ما من الديمقراطية الحقيقية ، وهو الذي عاش شبابه في دولة الفرد والشعارات الحماسية الكاذبة

والانتصارات الزائفة وتغييب الوعي والدين والضمير والعقل .. فكيف به يستوعب كل ما هو مخالف لكل هذا ..

العودة إلى الستينيات

ولم أكن أعرف أن الظروف بدأت تسير كي تمضي الدنيا العسكرية في اتجاه العودة إلى الستينيات بكل ما فيها من عبادة الفرد والشعارات الحماسية الكاذبة والانتصارات الزائفة وتغييب الوعي والدين والضمير والعقل ..

وعرفت فيما بعد أنه لهذا السبب نفسه تم وضع يد الدولة العميقة على هذا الشاعر واعتباره من القطع أو المهمات "المستعادة" من المخازن لأداء هذا الدور المطلوب في هذا التوجه الذي يسير سريعاً (من دون أن ينتبه الشعب) نحو الانقلاب العسكري وعودة سطوة الفرد .

كانت الأحداث تتوالى حتى جاء ترشيح زوجته لرئاسة التلفزيون ، وكانت بالطبع سيدة فاضلة لكنها لم يكن لها من الخبرة او اللعان ما يجعل توليها للمنصب مضموناً ، ولم يكن نفوده في ذلك الوقت المبكر قد تضخم بحيث يفرضها لكنه بذكاء صاحب الحاجة صاغ توصيته على ترشيحها دون غيرها بأنها " كبرت يا ولاد ومفروض تأخذ حقها قبل المعاش " وهكذا جيء بها لتأخذ حقها قبل المعاش ، لكنها بالطبع لم تستطع ان تستمر .

مكتب التوظيف الانقلابي

لم أكن أكره الرجل ولا أعاديه ، ولم أكن اتعالى عليه ولا أمن عليه ، ولم أكن اعتبره من طبقة أدنى ولا من مهنة أدنى على نحو ما كان الآخرون يفعلون معه .. لكنني كنت مشدوها من هذا التوظيف الحادّ حتى انني استعدت من ذاكرتي البصرية صورة لافتة كبيرة كانت بارزة في أحد شوارع المهندسين لما يسمى مكتب التوظيف السعودي ، وقد كان له مقرات كثيرة عبر طفرة النفط لكن اللافتة التي في ذلك الشارع كانت اكبرها . استعدت ذاكرتي اللافتة وجعلتني افكر في لافتة أخرى يكون عنوانها " مكتب التوظيف الانقلابي " أو "مكتب التوظيف العسكري " وأخذت أفكر في

طبيعة المقابلة الشخصية التي يمكن أن تسفر عن تعيين شاعر في مكتب التوظيف
الانقلابي .

فيما بعد شهور من الانقلاب كان لابد من مادة يصوغ فيها الشاعر بعض أشعار
تؤيد الانقلاب ، وكان هو نفسه يعرف الحقيقة ، وكان لابد لذكائه أن يقوده إلى حل ،
فإذا به يفعل أسخف الحلول وهو أن يتهم المعارضين للانقلاب بالدين الزائف
والارهاب البارز ، وأن يستعيد أسوأ الأفكار الفاشية في الهجوم على من يصفهم
زورا و ظلما بالفاشية .

كان يهاجم الناس بما هو فيه نفسه ، وكان يلجأ في هجومه إلى تطبيق عناصر
الفكرة التي يهاجمها وكأنه يقول للون الأحمر أنا أحمر منك دماً ، وكأنه يقول للون
الأصفر أنا أصفر منك مرارة ، وكأنه يقول للون الأسود أنا أسود منك قلباً .. هكذا
كان الشاعر يقول حتى إنه كتب من الأشعار أبياتاً أو سطوراً تعادي الانسانية معادة
صريحة .

كنت أرثي له وأرثي لوطني

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كنت أرثي له وأرثي لوطني الذي لم تتخلص مخازنه
القديمة من هذه المهمات المستهلكة ، وبدأت أعرف السر الحقيقي لاحتفاظ الدولة
المصرية العميقة بالكرائب .

غفر الله لنا ولشعبنا المظلوم.

الفصل الحادي عشر

اوبريتات الفضائيات

كانت للصحافة (بمعناها الواسع الذي يشمل التلفزيون والفضائيات والإعلام الجديد والتواصل الاجتماعي) مكانة متقدمة في أحداث مصر قبيل يناير ٢٠١١ وبعدها.

فضل برنامج دعم الديمقراطية

وبادئ ذي بدء ، فإني أحب أن أفخر على نقطة قفز عليها الجميع (و لا أقول قفز عليها كثيرون فحسب) وهي أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن برنامج دعم الديمقراطية الذي تبنته أمريكا كان فاعلاً ، بل فعلاً في ميدان الصحافة.

فرضت المرتبات الكبيرة التي تعاقبت بها بعض الفضائيات مع الصحفيين والمذيعين حالة جديدة من الثقة بالنفس مصدرها رقم التعاقد، وإذا جاز أنه كان هناك مثل يقول "معك قرش فأنت تساوي قرش" ، فإن التعاقدات الجديدة جعلت المتعاقد على مليون يساوي مليوناً، والمتعاقد على عشرة ملايين يساوي عشرة ملايين.

كنت [بأكثر من سبيل] واحداً من الذين دفعوا بالأمر في اتجاه مضاعفة أجور العاملين في الفكر ، لكنني لم أتنبه مبكراً أبداً إلى بعض الأثر غير المنظور لهذه الحقيقة ، لأنها لم تكن تعنيني ولا تتماس مع إطلااتي، لكن تحولها إلى معيار زاعق يقيس القيمة، لفت نظري بوضوح إلى حقبة قادمة من الظلام الأخلاقي.

الدوق الفردي الشاذ

دخل مجال الفضائيات مهندس ذو استثمارات وذو علاقة غير منكورة (بل معلنة) بالمخابرات الأمريكية، وإذا به يفرض ذوقه في أشياء لا يصح أن يظهر ذوقه فيها، ولست أستطيع أن أفصل القول في هذه النقطة لأن تفصيل القول فيها قد يدخلني تحت طائلة قانون العقوبات.

لكن الغريب في الأمر أن هذا المهندس الذي كان قادرًا على أن ينهج نهج روكفلر مثلًا فيكون هو روكفلر مصر، كان صغير النفس ، و كان لا يتجاوز في تقديره لنفسه ما عرف عن شخص راحل كان يحب في المقام الأول أن يقال عنه إنه شاعر و مثقف ، ولم يكن يدري أنه من المفروض أنه جاوز هذه المرحلة منذ الشباب، لكنه كان لا يزال يعيش مراهقة المجد، وكان المهندس المستثمر هو الآخر يريد أن يعيش مرحلة مبكرة من مراهقة السياسة لم تعد تليق به و لا بأرصده في البنوك والبورصات.

دخلوا بطريقة المحاكاة

وبطريقة المحاكاة دخل رجال الأعمال إلى مجال القنوات الفضائية، على نحو ما هو معروف ومشهور ، لكن هذا الدخول حمل بعض السمات التي تحولت مع الزمن إلى أبرز العيوب في هذه القنوات؛ فنظرًا لأن هؤلاء دخلوا المجال الإعلامي ليستكملوا به الصورة وليحموا به المصالح ، فقد غاب الإبداع والتجديد في الفكرة وأصبح المقصود الأول هو استيفاء الحدود الدنيا أو فوق الدنيا من النفوذ المتحقق عن وجود القناة واستمرارها ونجاحها وربحها وتجنبها للمشكلات ، لكن القنوات نفسها أصبحت صورة من بعضها البعض وصورة إلى حد ما (قد تكون أكثر حرية بقليل أو أعلى سقفًا بقليل) من ماسبيرو، و لا شيء غير ذلك.

كان من الواضح أنها قنوات محلية تستهدف من كان يستهدفهم الإعلام المصري بالتحديد ، فإذا كان هناك عربي مغرم بالدراما المصرية أو باللهجة المصرية أو بالطريقة المصرية في الحوار ، فإنه سيرى في هذه القنوات ما كان يبحث عنه في الزمن الماضي ، حين كان يأتي إلى مصر فيشاهد تليفزيونها في عصر ما قبل الفضائيات ، أو فيما بعد ذلك حين أصبح يرى الفضائية المصرية.

لكن ارتقاء هذه الفضائيات المصرية إلى أن تفكر في أن تنافس الجزيرة أو حتى أن تنافس العربية أو الحرة أو حتى الفضائيات الخليجية أو اللبنانية ، لم يكن واردًا على الإطلاق.

المصالح هي أقوى قيد على التقدم المهني

أما الخاصية الثانية التي جعلت هذه الفضائيات تقف عند حدود دنيا ولا تتعداها ، فهي أن ارتباطها بالمصالح حدّ من انطلاقها إلى درجة كبيرة ، وبخاصة أن الحكومة المصرية حكومة مركزية ، فإذا أرادت أن ترهق هذه الفضائيات فإن أمامها أكثر من عشرين وزارة تستطيع أن تخلق لها المتاعب وتجرفها في طريقها بكل سهولة ، وهي متاعب لا أول لها ولا آخر، وعلى سبيل المثال فإن وزارة القوى العاملة نفسها التي هي بعيدة في الظاهر عن الإعلام تستطيع أن تبعث بمفتش العمل ليغلق المنشأة؛ لأن معظم العقود إن وجدت غير قانونية؛ فالقنوات تعتمد في نسبة كبيرة من موظفيها على من يعملون في الصباح في ماسبيرو أو من يحتفظون بدرجاتهم الوظيفية هناك ويعملون هنا بإجازات سنوية بدون مرتب كأنهم معارون للخارج، ولا بد لهؤلاء من تصريح كتصريح العمل .

ومع أننا لم نسمع أن الحكومة لجأت إلى القوى العاملة للتكدير على القنوات، فإن الاحتمال لا يزال قائماً وسيظل قائماً. وهذا مجرد مثال لما تستطيعه أي حكومة مصرية فيما يتعلق بأي نشاط إنساني على أرض مصر.

دعك من رقابات على المضمون أناطها القانون بكثير من هيئاته وفي مقدمتها الرقابة على المصنفات الفنية.

ومع أن المتداول في سوق الإعلام كان يقول إن هذه الفضائيات لا تخضع للقانون المصري ولا للمعايير المصرية في الذوق والأخلاق والالتزام والحرية والتجاوز ... إلخ، فإن الحقيقة كانت غير ذلك، لكن أصحاب القنوات والعاملين فيها كانوا يلجؤون إلى تعضيد فكرة عدم الخضوع حتى بدون نص يمتلكونه، كما أن المنوط بهم الرقابة كانوا ميالين إلى التخلي المريح عن مسؤوليات لا نهاية لها ولا بداية أيضاً.

ومن ذا الذي يريد أن يضع نفسه في موضع الرجعي المتزمت ويتحمل قصف مدفعية الصحافة من كل الاتجاهات لمجرد أنه يؤدي واجبه الذي أناطه الدستور والقانون به.

غياب التأهيل

أما الجزئية الثالثة التي كانت كفيلة بانخفاض مستوى هذه القنوات وانخفاض ألقها ، فهي غياب التأهيل ، فقد كان في وسع أي قناة أن تضع الميكرفون والشاشة أمام أي صحفي أو محام أو فنانة أو سيدة بيت تتصور نفسها قادرة على الحديث وتترك له الجمهور يخاطبه دون أي انتباه لقاعدة أو لياقة أو لباقة.

وتبارى بعضها في هذا الاتجاه ف جاء بمعلقين كرويين وحوّلهم إلى مذيعين ومحاورين وملقنين وسبابين.

بل تبارى بعض آخر ف جاء بمن لا يستطيعون أن يديروا الحديث وجعلهم محور المحاور ، أي أن يتولى مذيع أو مذيعة محاورتهم على نحو أو آخر.

وعلى سبيل المثال وفي الموجة المكارثية الجديدة التي أعقبت الانقلاب فقد كان الملتزمون بالحد الأدنى من المهنية لا يتجاوزون ثلاثة على أقصى تقدير.

وعلى حين كانت هناك مذيعة وحيدة قادرة بحكم كونها مذيعة ورئيسة سابقة للقناة الأولى أن تفرمل بعض من تحاورهم من الذين يظنون أنفسهم فوق القانون، فإن أخريات وآخرين من الذين نصبتهن الفضائيات محاورين ومحاورين كانوا يعنقدون أن وظيفتهن هي المباركة أو التطييل فحسب، بل إن أحدهم وكان مقرباً من الانقلاب كان لا يكتفي بالتطييل وإنما يضيف إليه التصفيق والابتسام وطلب الإعادة.

عشوائية الأداء

وهكذا وصلت الفضائيات إلى حالة لم تحدثنا عنها الروايات الطريفة التي صيغت عن سلوك محطات الإذاعة الأهلية التي وجدت في العشرينات ، والتي كان الحوار فيها يصل إلى السباب بين المتنافسين من طبقة فنية موهوبة كطبقة الفنان الشيخ محمود صبح وكثير من فناني ذلك الزمان.

أذكر أنني في منتصف التسعينات دعيت في برنامجين عن الفنان محمد عبد الوهاب وعن السيدة أم كلثوم مع عدد من المؤرخين الفنيين، وكان هدف من دعوني

من وجودي أن يخرج المستمع عن الإطار المعروف في ذلك الوقت في إحياء ذكرى الفنانين إلى إطار أكثر إحاطة وأكثر كشفًا عن مكانة كل فنان من هؤلاء في المجتمع وفي التاريخ والساسة وفي الاتصال بالفئات الأخرى غير الفنية.

وكان هذا يقتضي ويتطلب مني عناية كبرى بالإعداد وتحقيق التواريخ والروايات، وهو أمر لا يمكن إنجازه في الأوقات الضيقة التي تمضي بين الاتفاق على الحلقة وتقديمها، وهو وقت لا يتعدى في الغالب أسبوعًا أو اثنين.

وفي حلقة من الحلقات فوجئت بسؤال من أحد المشاركين المعجبين بدقة ما أقدم عنم أعتقد أنه خدم هذا التراث الغنائي وحافظ عليه وعلى نوادره ، وبخاصة تلك النوادر التي كانت تختفي بسبب السياسة كأغنية الفنون التي غنتها السيدة أم كلثوم في تحية الملك فاروق ونالت بسببها ذلك الوسام الكبير ثم أصبحت الأغنية ممنوعة في عهد ٢٣ يوليو، وربما نزعت من أرشيف الإذاعة.

فكرة النضج

كان السؤال في حد ذاته يدل على علم السائل وعلى نضج المجتمع الفني والإعلامي في تلك الفترة، وجاءت إجابتي التي ظل كثيرون يرددونها بإعجاب في الأيام التي تلت إذاعة الحلقة، وهي أن للقسم العربي من الإذاعة الإسرائيلية الفضل الأكبر في هذا الحفاظ وهذا التوفيق، وقد استعان هذا القسم بناقد فني من أصل عربي كان معروفًا للمستمعين العرب، كما استعان بالقسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية التي كانت سباقة إلى إذاعة تلاوة القرآن الكريم من البي بي سي.

أردت بهذا الاستطراد أن أصور حقيقة مهمة وهي أن فضائياتنا في ظل الانقلاب الحاضر كانت في أخلاقياتها ومهنتها أقل من أن تصل إلى مستوى من كنا نتعامل معهم على أنهم يمثلون الشيطان .

حمى التردي الفكري

وصلت حالة حمى التردي الفكري إلى حدود لا يتخيلها عقل ، ومن ذلك أن أحد الصحفيين الذين يظهرون إلى جوار المذيع قال إنه فوجئ في معرض الكتاب بأن

كتب الدكتور الجوادي معروضة، والناس تشتريها وأخذ يحرض على كل من يبيع هذه الكتب بمن فيهم دور نشر عامة تملكها الدولة .

وفيما بعد عام من هذا التحريض ، التقيت في معرض عربي للكتاب بأحد المسؤولين عن مبيعات دار نشر كبيرة فقص عليّ أن مكتبة عامة كبيرة في القاهرة كانت قد اختارت مجموعة كتبي ضمن ما اختاره الفريق المكلف بانتقاء الكتب، وكانت رئيسة فريق الاقتناء قد وفرت جهدا في انتقاء و فحص الكتب إلى المرحلة النهائية عند مراجعة الفواتير، فلما وجدت كتبي أصابها مس من الشيطان وأخذت تقول: ألم تشاهدوا التليفزيون أمس، ألم تسمعوا فلان، وكان أحد الموظفين في فريق الانتقاء ذكياً فقال لها: نحن اخترنا هذه الكتب من أول الأسبوع، أي قبل حلقة أمس ، وأخذ منه خيط الحديث المحاسب الذي أعد الفواتير فقال إنه جهز الفواتير من ثلاثة أيام بكل ما تتطلبه من إجراءات روتينية واسم الكتاب وتاريخ الطبع و ... الثمن والتمن بعد الخصم ، ومجموع الثمن في كل صفحة من صفحات الفاتورة الذي لا بد أن ينقل في أول الصفحة التالية تحت بند : ما قبله .. إلخ.

لكن السيدة رئيسة الفريق صممت على إعادة تحرير الفواتير كلها بدون كتبي ، فما كان من المحاسب إلا أن قال لها: طيب هل يمكن أن تفحصي حضرتك الباقي ، فقد يكون فيه ما يحذف أيضاً، حتى لا نعيد كتابة الفواتير مرة أخرى ، فسألته : هل توجد كتب للقرضاوي أو سيد قطب، قال: لا . قالت: توكل على الله حتى لو عندك أعمال لإبليس ، قال المحاسب المصري الفكه : السنة القادمة إن شاء الله ننشر لإبليس.

فرزت إحدى الموظفين كتبي و خصمها المحاسب من الفاتورة ووضعوا الكتب جانبا، وبعد أقل من دقيقتين فوجئوا بأجنبي (خواجة) يتحدث العربية و يقف إلى جوار كتبي ويسأل عن مرافقه المصري فسألوه : من يقصد ؟ قال الذي جمع هذه الكتب : كتب الجوادي و جهازها، لأننا قادمون اليوم لشراء مجموعة منها.

نظر الجميع إلى بعضهم نظرة تعجب ، وإذا بالسيدة رئيسة الفريق التي أمرت منذ دقائق معدودة بشطب كتبي من الفواتير تأخذ بنفسها زمام المبادرة وتقول للخواجة : صديقك المصري لم يأت بعد ، ونحن الذين جمعنا هذه الكتب لأنفسنا لكن

زميلنا الذي جمعها سيساعدك في تجميعها لكم ، كما جمعها لنا لأننا جميعا نحب هذا المؤلف الصادق ، كان الأمر إذاً نوبة من صحيان الضمير!.

قال الخواجة : من فضلك نحن لا نريد نسخة واحدة من كل عنوان وإنما نريد خمس نسخ من كل عنوان ماعدا هذين العنوانين فنريد من كل منهما ١٥ نسخة.

دلالة التأمل

وكما أشرنا فلم نعلم بهذه القصة إلا بعد أكثر من عام من حدوثها ، لكننا كنا قد علمنا بما قاله الصحفي الذي يجلس إلى جوار المذيع في اليوم التالي لحديثه، وكان تعليقي لمن نقل إليّ الواقعة أنني الوحيد الذي كرمته والده الصحفي العظيم بأن كتبت عنه كتابة علمية ، فتعجب صديقي ثم قال: وهل يمكن أن تؤدبه على ما فعل؟.

قلت: لن أفعل فهو صاحب فضل عليّ. ولم يحدث في حياتي أن هاجمت أحداً كان له عليّ فضل مهما أخطأ في حقي. قال صديقي: لكنك لن تظل كذلك. قلت: أدعو الله أن أموت وأنا كذلك. قال وهو يستسمحني بكل أدب: هل يمكن أن تحدثني عن مجال فضله؟ قلت : المسألة هينة وهو أنه جاءني في أصعب أيام حياتي ، وأنا في حاجة إلى من يسهل لي أمرا فسهله

ها أنا قد وصلت بهذه القصة إلى ما يجب أن أتوقف عنده فلا أتطرق إليه ، وهو نفسه الطابع الشخصي الذي يبدأ عنده تناول الفضائيات ، وهو الطابع الذي سقط بالقضايا التي تعرضها الفضائيات المصرية كلها ، حتى إن المتابعين لهذه القنوات أصبحوا يستمعون إليها ليروا ماذا يفعل فلان في فلان وكيف يسب فلان فلاناً.

انحصار علم "تحليل المضمون" في العلاقات الشخصية

أصبح علم "تحليل المضمون" كما يسميه رجال الإعلام والدراسات الإعلامية محصوراً تماماً في العلائق الشخصية، ومع هذا الانحصار والتضييق لم ينحسر دور الفضائيات لسبب واحد ووحيد ، وهي أنها كانت تملأ الفراغ الليلي عند المشاهد المصري ، وقد احتلت المكانة التي كان يحتلها في الماضي مسلسل السهرة كما كانوا يسمونه.

أذكر أن الدكتور عبد القادر القط بما له من قيمة أدبية ونقدية عالية كان على قيد الحياة حين اندلعت المعركة بين أنصار الشعر وأنصار الرواية، وأيهما أولى بأن يكون ديوان العرب المعاصر، فلما اتيح له أن يُسأل ويتدخل في هذه المعركة تحدث عن دراما التليفزيون معترفاً بمكانتها في التاريخ الأدبي والفني.

لو كان العمر امتد بالدكتور القط لكان قد أثبت لبرامج الحوارات الكلامية بما فيها من مونولوجات متدينة المستوى الفني والخلقي ما استحوزت عليه من مكانة.

مجتمع الثورة الذي لم نعرفه من قبل

هنا أحب أن أتطرق إلى قصة كفيفة بفهم مجتمع الثورة.. وهي أني فوجئت ذات مرة وأنا أتحدث متحمساً للثورة بمن يسألني الرأي فيما قاله الشيخ محمد حسان من أن ثورة يناير أظهرت أسوأ ما فينا، وإذا بي أرد مباشرة ودون تفكير بأن رأيي أن ثورة يناير أظهرت أسوأ من فينا.

كنت أظن أن الأمر انتهى عند سؤال عابر وجواب باتر . ولكني فوجئت بمواقع التواصل الاجتماعي وهي معجبة أيما إعجاب بالرد العابر ، وقام بعض من أعرف فضلهم وأمتن له ، وإن كنت لا أعرفهم بنشر صورتينا ، وتحت صورتينا قوله: إن الثورة أظهرت أسوأ ما فينا ، وقولي: إن الثورة أظهرت أسوأ من فينا.

وانتشرت هذه المقارنة بطريقة لم يتوقعها أحد، لكنها في واقع الأمر كانت تستحق هذا الانتشار ثم التكرار والترديد من آن لآخر ، فقد كان التعبير عبقريا عما يحس به شباب الثورة تجاه وجوه الحياة السياسية والاجتماعية في زمن الثورة، مع أن التعبير لم يرد في سجال ولا حوار ولا ندوة ولا على الهواء .

هذا بالضبط هو ما كان الشباب الذكي يفعله حين يستمع إلى الفضائيات ، ذلك أنه كان يبحث عن "الجواهر" وليس المقصود بالجوهرة هنا الشيء المادي النفيس الغالي ، ولكنه معنى قريب من المعنى الفلسفي المصطلحي الذي يفرق بين الجواهر والعرض، وهكذا كان شباب الثورة بدون أي توجه أو قيادة أو اتفاق يبحثون عن

العبارات الكاشفة التي ترد عرضاً في حديث غير واع لنجم من نجوم الانقلاب أو الثورة المضادة.

و ربما كانت العبارة العابرة سيئة، وربما كان صاحبها عيباً سيء اللفظ مختل التعبير والتصوير ، لكنه بالنسبة لأولئك المحللين الباحثين عن الإبرة في وسط القش كانت تمثل شيئاً يستحق المعاناة ، لأنه يكشف عن جوهر إيجابي أو سلبي .

ومن حسن حظ الثورة أن الإعلام المضاد التابع للثورة المضادة ساعد الثورة من حيث لم تدر على اكتشاف الحقيقة بطريقة مبهرة ودون أن يدري.

العلاقات بديلاً عن الكفاءة

تمثل الخطر في إعلام ما بعد ٢٥ يناير ، في أن معيار النجاح انحصر في العلاقات وكان انحصاره في العلاقات أكبر خطر عليه وعلى الثورة وعلى مصر.

والحق أن معظم هذه العلاقات نشأت نتيجة كفاءة ما ، لكن الكفاءة سرعان ما انزوت في ركن قصي لتعترف للعلاقات بأثرها وأسبقيتها.

أفصل القول لك بأن أذكر على سبيل المثال أن فلاناً الفلاني كان صحفياً ممتازاً، لكنه ظل في إطار الكفاءة وحدها فلما حدثت الثورة وأصبحت هناك قوة يمثلها رجل الأعمال سين، وأصبح رجل الأعمال هذا حريصاً على أن يتعامل مع الإعلام بطريقة مؤسسية (ناجحة كانت أو فاشلة، صالحة أو فاسدة) على نحو ما يفعل في علاقاته بالوزارات والهيئات ومكاتب الترخيص والتصريح والتشغيل، عند ذلك ، فقد أثر هذا الرجل أن تكون علاقته هذه من خلال صحفي أو إعلامي يدير الأمور، بحيث ينقل الرغبات الصادرة ويعبر عن الأفكار الصادرة ويتلقى الرغبات الواردة ويلخص الأفكار الواردة.

لا يمكن التجاوز بوصف هذا الصحفي الذي تولى هذه المهمة بأنه مستشار صحفي ولا يمكن التجاوز بوصفه بأنه سكرتير صحفي، ولا يمكن التوسط بوصفه بأنه مدير صحفي، لكنه في واقع الأمر نجم مرتبط في نجوميته بنجومية أخرى تملك المال والتمويل.

لكن الإقرار بهذه العلاقة على هذا النحو جعل المجتمع الصحفي يتحول تلقائيًا وتدرجيًا إلى كيانات تجارية لها احترامها ولها أيضًا قسوتها على المجتمع.

فإذا أنت ملكت الدليل على أن هذا المنتج الفلاني ضار بالصحة إلى درجة السمية فإن اللوبي المرتبط بصانع أو مستورد هذا المنتج قادر على أن يهاجمك بما فيه الكفاية بل وقادر على أن يهاجم النجم المالي الذي أنت مرتبط به في أعز ما يمكن أن يكسب منه.

توازن الرعب

هكذا نشأت حالة من توازن الرعب في الحفاظ على المصالح، وهي حالة كان من الممكن اختراقها من أن لآخر تبعًا لمهارة من يريد أن يحتل لنفسه مكانًا في الإمبراطوريتين ، لكن قضية الرأي المجرد لم يعد لها وجود قوي ، وقضية الفكر المحبب لم تعد لها مقومات ساحقة ، وهكذا لم يعد النقد ليوجه إليك لأنك ماركسي ، ولكن لأنك مرتبط بالصقلي أو الطلياني أو بالجورجي أو بالجرماني ... إلخ.

وقد كان من الصعب عليك أن تتصور أن يفترق المذيعان اللذان حاوراك ذات صباح في قناة النيل ليصبح أحدهما في قناة ، والآخر في قناة أخرى لا تلتقيان في أي شيء ... إلا حينما حدثت الثورة المضادة فأصبحتا تصفقان معا ، من باب الاضطرار ، وأصبحا من جنود أو ذخيرة الثورة المضادة بدرجات مختلفة.

الفصل الثاني عشر

أوركسترا المفاجأة

تمثل العلاقة بين ما سمي بالمجلس العسكري والمدنيين بعد ثورة يناير ٢٠١١ منبعا بل منجما لكثير من الأعمال الفنية التي لم تكتب حتى الآن، فقد كان هذا المجلس بمثابة أوركسترا أو فرقة موسيقية دعيت على عجل لتعزف سيمفونية لم تكتب يومها لهذا الغرض ، وأن كانت لها بروفات ومسودات ومخطوطات و تهويمات في كتالوجات الثورات والثورات المضادة .

وأبدأ فأقول: إن الشباب ومعهم الشعب كانوا يرون أن تعبير المجلس العسكري أصدق تعبيراً من تعبير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؛ ذلك أن هذا الذي سُمي المجلس الأعلى لم يكن متشكلا ككيان مهني أو وظيفي أو تكنوقراطي ، لكنه تشكل بالية الأمر الواقع ليكون شبيهاً مثلاً بالمجلس الأعلى للهيئات القضائية ، الذي أنهى الرئيس عبد الناصر وجوده في مذبحه القضاء ، وظل غائبا عن الوجود إلى أن أعاده الرئيس مبارك في ١٩٨٤ ، و الذي هو كيان معروف ومحدد، وأعضاؤه معروفون ومحددون ، حتى إن من بينهم النائب العام الذي هو منصب لا يخضع للأقدمية وبالتالي لا يُعرف من سيشغله على سبيل التحديد، وإن كانت طول مدد النائب العام قد جعلته من الثوابت، بحيث أصبح المجلس الأعلى للهيئات القضائية للسنة القادمة على سبيل المثال معروفاً تماماً.

أما ما سمي بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، فكان يظهر عند احتفال ٦ أكتوبر على سبيل المثال ، حيث يلتقي رئيس الجمهورية قبل شهود الاحتفالات وقبل العرض بقيادة القوات المسلحة ، وهي كلمة مطاطة تحتل أن يظهر تحت مظلتها :

قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة

- الدفاع الجوي
- القوات الجوية

- القوات البحرية

قادة الجيوش

- المنطقة المركزية (وكانها بمثابة الجيش الأول)
- الجيش الثاني
- الجيش الثالث

قادة المناطق وهم شبهون بقيادة الجيوش

- قائد المنطقة العسكرية الشمالية
- قائد المنطقة العسكرية الغربية
- قائد المنطقة العسكرية الجنوبية

مديرو الأسلحة

- سلاح المدرعات
 - سلاح المشاة
 - سلاح المدفعية
 - سلاح الحرب الكيميائية
 - سلاح الصاعقة و سلاح المظلات
- (أو يجتمع السلاحان تحت اسم القوات الخاصة)

رؤساء الهيئات

مع أن هذه الهيئات على أكثر من مستوى من حيث الوضع التراتبي :

- هيئة العمليات
- الهيئة الهندسية
- هيئة التسليح
- هيئة التنظيم والإدارة

• هيئة التدريب

مديرو إدارات مهمة

- المخابرات الحربية
- الشرطة العسكرية
- الحرس الجمهوري

مديرو إدارات مهمة

وهي مناصب كانت تظهر أحيانا في الصورة:

- مدير الإمداد والتموين
- مدير المهمات
- مدير التوجيه المعنوي
- مدير الأسلحة والذخيرة

مساعدو الوزير

وهي مناصب شخصية يختص بها المشير أشخاصا بعينهم استبقاهم في الخدمة بعد نهاية خدمتهم أو استدعاهم لها ، وكان من هؤلاء عدد من المؤثرين جداً

- مساعد الوزير للتسليح
- مساعد الوزير للشئون القانونية
- مساعد الوزير (بدون ذكر الاختصاص)
- مساعد الوزير للشئون المالية.

بدأ أول محور من محاور هذه العلاقة الملتبسة والشائكة والمؤجلة بين القوات المسلحة والشعب عندما حصل الجيش من الرئيس مبارك على تنازله عن الرياسة

أو عندما ألقى الرئيس مبارك بالمسئولية عن البلد للجيش، فقد كان هناك ثلاثة احتمالات:

- أن يكلف القائد العام أي المشير بالقيام بعمل الرئيس
- أن يكلف القوات المسلحة بدون تحديد اسم القائد العام
- أن تكلف قيادة جماعية تحدد بالاسم أو تترك عائمة على النحو الذي حدث بالضبط ، فقد أصبح التكليف منوطاً بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، بما يعني تكليف جماعة من القادة يكون المسئول عن اختيارهم هو القائد العام الذي أصبح أوتوماتيكياً بمثابة القائد الأعلى أيضاً.

ومن العجيب أنه وقع على عاتقي دون غيري ودون اتفاق مسبق أو تكليف منطوق أو مكتوب تحديد كل ما تحدد من بدائل لهذه الأمور، وتم هذا بطريقة سلسلة لم أشعر أنا نفسي بها من خلال الإعلام وكانت إجاباتي الجاهزة المستمدة من وقائع التاريخ بمثابة ما يسمى في القانون: مشروع قانون أو اقتراح بقانون، وكان العسكريون أصحاب الأمر النهي يأخذون مما أقترحه ما يوافقون عليه بالذائقة ويتركون ما لا يريدونه من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التبرير أو الالتزام.

أشرح هذه العبارة فأقول إنهم كانوا في بعض الأحيان يأخذون البدلة ويتركون الصدرية ، تمامًا فكأنهم حولوا البدلة ذات الثلاث قطع (بلغة العرض التجاري) إلى بدلة ذات قطعتين، وكان هذا يمضي دون أي انتقاد.

لكن المشكلة كانت أنهم كثيرًا ما يأخذون البنطلون والصدرية ويتركون الجاكت نهائيًا ، وهكذا كانت تبدو الأمور وكأنها أقل اكتمالاً مما ينبغي أو مما كانت عليه الصورة في عهد الرئيس مبارك وهو العهد المنتهي لتوّه، وكان كما نعرف عهداً يجيد الالتزام بالشكل المضبوط ، وفي أحيان كثيرة كانوا يفضلون العكس فيأخذون الجاكت والصدرية مصممين على الإبقاء على بنطلون أقل قدرًا وقيمة من البدلة الجديدة وكأنهم يغيرون الواجهة دون تغيير القاعدة.

الفصل الثالث عشر

كوميديا الأوهام

نستعير من المسرح الكلاسيكي اسم مسرحية كوميديا الأخطاء لنقرأ في هذا الفصل قصة طريفة حدثت مع بداية عمل المجلس العسكري بعد تنحي الرئيس مبارك مباشرة يمكن تسميتها باسم كوميديا الأوهام .

كانت الحالة الأولى التي حرص العسكريون على أن يظهروا فيها و كأنهم عمليون منجزون يريدون أن ينجزوا بسرعة ، ما حدث في تشكيلهم لجنة من عشرة أعضاء لتعديل الدستور، وقد شكلوا هذه اللجنة من دون أن يذكروا مبررات اختيار أعضائها ، لكنها كانت وافية بما أرادوه من احتواء الإسلاميين.

وقد اكتفوا من هؤلاء الإسلاميين باثنين كان أولهما هو رئيس اللجنة نفسه وهو المستشار طارق البشري الذي وصل قبل تقاعده إلى منصب النائب الأول لرئيس مجلس الدولة، وكان هناك من الإسلاميين من هو أعلى منه في وظيفته القضائية و هو الرئيس القادم لمحكمة النقض ، لكن المستشار الغرياني نفسه لم يكن ليبتئس أو يضجر من تخطيه في هذا الاختيار.

كانت لجنة مبارك التي أعلن عنها في أول أيام الثورة ولم تعمل بعد ذلك قد تشكلت برئاسة رئيس محكمة النقض ، لكن المراقبين بحسن نية وبحسن تقدير للسلطة الجديدة فهموا أو أقنعوا أنفسهم أن العسكريين اختاروا المستشار طارق البشري على رأس اللجنة ليظهروا ما يحرص عليه العسكريون إذا ما صار القرار بأيديهم من أنهم يستطيعون تقديم بديل جيد وغير متوقع.

حسن الظن بحسن الاختيار

وقد كان لاختيار المستشار طارق البشري في أذهان الصحفيين والمثقفين والمراقبين ورجال القانون فوائد أخرى إضافية :

- فقد أظهر صورة العسكريين وكأنهم بهذا الاختيار يحرصون على إرضاء من ظلم أملة أو أجهض طموحه في عهد مبارك، فقد كان من الشائع أن المستشار طارق البشري كان قد أعد نفسه وأعد زملاؤه لرئاسة مجلس الدولة حسب الترتيب لكن الدولة كانت لا تزال تحتفظ بالمستشار الخادم السابق على البشري في الأقدمية ، والذي كان معارًا خارج مصر فلما أوشك منصب رئيس مجلس الدولة على الخلو عاد الخادم إلى مصر وتولى المنصب بحكم أقدميته السابقة على المستشار طارق البشري.
- كان المستشار طارق البشري يساريا سابقا تحول إلى الإسلام السياسي ، وهكذا كان اختياره إرضاء أيضا لليسار.
- كان المستشار طارق البشري مؤرخًا وصاحب العديد من الدراسات التاريخية ، وهكذا اكتمل عنصر المؤرخ في اللجنة بكل ما تتطلبه اللجنة نظريا من التواصل مع التاريخ ومع الماضي.
- كان المستشار طارق البشري رجلا كبير السن هادئ الطباع هادئ النبر إذا ما قورن بالبدائل التي كانت متاحة في ذلك اليوم.

المجلس العسكري يحكم على الأمانى بالنقض

بعد قليل من الوقت فإنه سرعان ما تردد بصوت عال ما كان مسربا من المجلس العسكري نفسه إلى الشارع السياسي ، وهو أنه لا أحد من أعضاء المجلس العسكري كان يعرف عن البشري أنه مؤرخ ، بل إنهم لما قيل لهم هذا لم يصدقوه ، ولم يكثرثوا له ، بل إنهم كانوا لا يعترفون بأي قدر من الأهمية للتاريخ ، وقل مثل هذا عن ميول البشري اليسارية المبكرة ، وقل مثل هذا عن أقدميته وقصته في رئاسة مجلس الدولة .

وسرعان ما سرب المجلس العسكري نفسه أن السبب الحقيقي في اختيار المستشار طارق البشري ليس أيا من هذه الأسباب ، وإنما هو سبب يهيج و يكرر نفس أسلوب نهاية عهد مبارك ، وهو نظام الكفيل وكفيل الكفيل ، فقد تم الاختيار بمشورة أحد المحامين الذين كانوا قد تعاونوا مع أجهزة الأمن في قضية أخيرة تمس

موضوع الأقباط واكتشاف الجمارك للأسلحة التي استوردوها ، وكان هذا المحامي صهرا للواء مميش قائد القوات البحرية (أخوه متزوج من أخت مميش) ، وبالتالي جاءت الفرصة للمحامي ليكون قريباً جداً من قادة الجيش أثناء ثورة يناير ٢٠١١ ، وأدى لهؤلاء القادة خدمات ضخمة دون أن يتنبه لها الثوار بالطبع. وهكذا جاء اختيار المستشار طارق البشري على جلالته قدره و بكل ماله من فضل بطريقة كفيل الكفيل رغم أحييته وامتيازته ، وهكذا ظهر للمراقبين المحترمين الغافلين من ناحية أخرى أن يد الله مع الثورة المصرية رغم كل التآمر المبكر عليها.

قصة المحامي الذي اختير للجنة

من زاوية أخرى فقد كان من الأمور الموحية بأن هناك تخطيطاً واضحاً ، ما تم اختيار الأستاذ صبحي صالح عضواً في لجنة العشرة.

كان التخطيط واضحاً لسبب طريف هو أن اللجنة الحزبية الحاكمة التي أدارت انتخابات ٢٠١٠ بذلت كل الجهد لإسقاط صبحي صالح في دائرته التي فاز فيها في ٢٠٠٥ حتى إنها اضطرت نفسها إلى ترشيح أكثر شخص حكومي محبوب في الإسكندرية منافساً له وهو محمد عبد السلام المحبوب، وكان هذا أقصى قدر من الاستقطاب الذي مارسته المجموعة المعروفة بمجموعة أحمد عز و جمال مبارك.

وهكذا كان المحامي صبحي صالح حين قامت الثورة عضو برلمان سابق فقد مقعده لأنه من الإخوان.

ها هو المجلس العسكري يعيد صبحي صالح الذي كان محامياً قبل أن يترشح للبرلمان ويفوز بعضويته، والذي كان على ما يقال على علاقة جيدة بالقوات البحرية أي بالقوات المسلحة من قبل أن يتم دراسة القانون ويصبح محامياً.

وكان المعنى الواضح الذي فهمه المراقبون السياسيون أن الجيش يقول للإخوان بعبارة صريحة: إن بوسعنا كجيش أن نرجع لكم أيها الإخوان حاكم بل ونعطيك أكثر منه ، لكننا نحن الذين سنختار من بينكم حسبما نريد!

كان من الممكن بالطبع أن يقال إن اختيار صبحي صالح جاء من طريق مميش أو عن طريق صهره المحامي ، أو حتى عن طريق المستشار طارق البشري ، لكن المعنى السياسي الذي تحدثت عنه كان واضحاً جداً ، وهو أننا الذين نختار ولستم أنتم يا قيادة الإخوان، سنختار من بينكم ، وهذا أفضل لنا من أن تختاروا أنتم من بيننا أو من آخرين. فالقرار في النهاية هو في فعل الاختيار وليس فيمن هو الذي سيقع عليه الاختيار.

فعل الاختيار

وأعترف بكل وضوح أن شخصا مثلي في مثل هذا الوقت لم يكن منتبها بما فيه الكفاية إلى خطورة مثل هذا المبدأ، وبخاصة إذا ما كان الشخص طبيياً يعرف طبيعة السوق واختيار الجمهور لمن يثق به من معالجه ، وعدم مسؤوليته عن اختيارات الجماهير ، لأنها هي التي ستدفع لمن تذهب إلى عيادته وستجني الثمار الإيجابية أو السلبية من مشورته.

لكن الأمر كان مخططاً بدقة عند مستشاري المجلس العسكري ممن اصطح على انهم ليسوا الا أعداء الإسلام الذين رسموا السيناريوهات - وهو ما يتلخص ببساطة شديدة في فعل أمر واضح : أشركوا أكبر نسبة من الإسلاميين في كل الإجراءات لينالوا أكبر قدر من الانتقادات الحادة والعداوات المبكرة وليكون هذا تقليلاً من فرصتهم القادمة في الانتخابات.

ومن العجيب والطريف أن الإسلاميين كانوا واعين تماماً لهذا ، لا بحكم التاريخ، ولكن بحكم ما كانوا يرونه من الارتياب والتربص في أعين العسكريين وهم يسلمونهم المسؤولية أو يشركونهم فيها.

كانت النفس الإنسانية بما وهبها الله من نعمة التمييز قادرة على اكتشاف ما ظن أصحابه أنهم قادرون على إخفائه.

الفصل الرابع عشر

حجز الكراسي في مسرحية الانقلاب

من المهم أن أشير إلى حقيقة لمستها بنفسي، وهي أن كثيراً من التكنوقراطيين المصريين بمن فيهم وزراء ورؤساء شركات كانوا منذ تنحي مبارك يتوقعون فكرة تولي العسكر زمام المسؤولية دون لف أو دوران، أي أن يفتنوا الوضع على أنه انقلاب عسكري .

وكانت وجهة نظر هؤلاء هو أن هؤلاء العسكريين لم يعرفوا شيئاً في حياتهم غير دكتاتورية الدبابية، سواء أكانوا سعداء بها فيما مضى أم لم يكونوا سعداء، وهم قد درجوا على أن الرئيس لا يكون إلا من ذوي الماضي العسكري بصورة أو بأخرى، وأنهم لهذا السبب لن يفهموا ديموقراطية ولا انتخابات ولا أحزاب ، وأنهم سينقضون سريعاً على أي تجربة ناجحة ليقتلوا بأي طريقة ، سواء كان القاتل هو س أو ص، فكلهم عندهم استعداد للقتل.

أبسط الأمور بعيداً عن البيولوجيا فأذكر بهذه المناسبة أنه كان لنا زميل في المرحلة الإعدادية من عائلة تجار كانت لهم خصائصهم و أساليبهم النفسية في التعامل مع أندادهم ومع زبائنهم ، وكانوا أكثر من عشرة تجار كلهم أبناء عمومة (من ثلاثة أو أربعة أشقاء) ، فكان هؤلاء يمثلون لصديقنا وزميلنا آباءه وأعمامه، وكان زميلنا يبدو هادئاً متحفظاً بما لا ينبئ عن أنه سيكون كأعمامه، وذات مرة تحدثنا في هذا الموضوع ، بعد أن أصبحنا في سنوات الجامعة وإذا بزميلنا الذي هو أكثرنا جميعاً نكاهاً ينبهنا إلى أن زميلنا سيتحول إلى أخلاقهم في مرحلة ما لأن صفات هذه الجينات المتعلقة بالسوق والتجارة لا تظهر إلا في مرحلة عمرية معينة.

هذا ما حدث بالفعل

و الواقع أن تجربة وطننا الحبيب مع العسكريين من أبنائه كانت شبيهة تماماً بقصة زميلنا ، فإنهم قبل السلطة والتمكن منها قد يكونون لطيفي المعشر، خفيضي

الصوت ، كثيري الحياء، مواظبين على الصلاة ثم تظهر جينات الظلم والقتل والانقلاب في وقتها المعهود عند من يدرسون التاريخ.

وأعود لقصتنا كنت أسمع من كثيرين هذه الرغبة فأتعجب فيقولون لي غداً ترى أن بعض هؤلاء هم الرئيس عبد الناصر بما صورته الأدبيات الكارهة له من خبثه ، وغدره، وتضخم ذاته ، وحرصه على صورة نفسه فقط.

أذكر أمثلة أربعة متصاعدة في قسوتها الدرامية (من الأبسط للأعقد) معبرة عن هذا الواقع.

المثل الأول على لسان وزير متحضر

قال لي وزير سابق عاش في فرنسا بعض الوقت ويعرف قيمة الديمقراطية: لماذا لا يعملون انقلابهم من الآن بدلاً من تضييع سنتين في المراوغة والانتخابات ثم سنة أخرى يتركونها لمن يفوز ليعذبه ؟

قلت له: إن عهد الانقلابات انتهى. قال: عندنا يحبون و يحيون المودة القديمة.

قلت له: إن الشعب لن يوافق. فقال: نعم أعرف لكن من سيقف موقف الرجولة سيتعب كثيراً، والعالم من حولنا متأمر.

كان هذا الحديث في أول الصيف سنة ٢٠١١ وقد قال ذلك الوزير يومها التعبير المصري الشهير ارحمونا من تضييع الوقت بالتسلي على الشعب !.

المثل الثاني على لسان قائد سيارة شاب

كنت استقل ما يسمى بالتاكسي الأبيض من مصر الجديدة إلى مجمع اللغة العربية في الزمالك، فقال لي السائق، بعد أن تأكد من أنني الشخص الذي يراه على الشاشة، هل تظن أن الجيش سيتترك للباشوات من أمثالك الحكم؟

- عن نفسي أنا لا أريد الحكم - أعرف هذا - كيف عرفت

- لأنك تركب معي ولو كنت تخطط ما كنت قد عشت بدون سائق

- السائق غاب عني اليوم

- طيب يا باشا أنا آسف لا تبعديني عن الموضوع الأصلي ، فأنا أريد أن أقول لك إن هؤلاء الضباط لن يتركوا لكم الحكم.

- وإذا انتخب الشعب حاكما له

- هم لا يؤمنون بالشعب ولا يعرفون إيماننا إلا بالأمريكان أو بالروس ، فلو أن الإخوان مثلا أو غيرهم ربطوا كويس مع الأمريكان أو الروس سينتهي حكم العسكر وإلا فسيعودون في أي لحظة من الشباك.

المثل الثالث كان على لسان قائد سيارة مسن

سائق مسن، لم يكلف نفسه عناء الظهور بمظهر من يسألني عن شخصيتي ولا عناء إخباري أنه يقصدني بكلامه وانطلق مباشرة في مونولوج ذكي من مونولوجات أبناء البلد القاهريين التي تبدأ بلا مقدمات و إذا به يقول : صباح أمس كنت أسير بسيارتي على باب الله ، يا فتاح يا عليم ، شاور لي لواء بملابسه البيضاء، يقصد أنه لواء شرطة ، وقفت طبعا وقلت له: السيارة مش أد المقام يا باشا لكن تفضل، لم يرد عليّ وإنما أشار للأمام مع مد يده فهمت أنه على طول على طول، كان يتحدث في الجهاز الذي يتحدث فيه الضباط وتسمع الأصوات الأخرى فيه، لم يطوروا أنفسهم يا باشا بعد اختراع المحمول، ولا يزالون يستعملون الأجهزة التي يقولون فيها : حول .. المهم أن الباشا كان يقول لزميله: أبوه احنا عارفين أنهم مبسوطين بالانتخابات وبالإقبال، ولا يعرفون أن كل ده مالوش لازمة. لا يعرفون أن هذا الشعب لا تصلح معه الانتخابات. احنا نعمل اللي علينا وبعدين ها نقلب ده كله ، الجيش مش مبسوط بنغمة العرس الديموقراطي .. طبعا ولا احنا .. لكن كل حاجة تأخذ وقتها.

قاطعت السائق المسترسل في روايته المكتملة الحافلة أيضا برويته هو نفسه ، وقلت له: ألم تقل للباشا شيئا؟

قال السائق: قلت له أكثر مما تتخيل حضرتك، عارف حضرتك الكلام اللي أنت بتقوله في التلفزيون أنا قلته كله ، حتى الباشا اللواء قال لي إنه عارف ده كلام الدكتور!!

في الحقيقة تفصدت عرقًا، ولا أقول فرحًا.

والسائق ينظر إليّ شذراً نظرة المنتصر أو سيد الموقف ، وينتظر مني إجابة من دون أن يسألني أي سؤال فقد وضعني بذكاء ابن البلد الأصيل في موضع يجبرني على التعليق .

قلت للسائق في لمح البصر: هل كانوا يتصورون ٢٥ يناير؟ قال الرجل: الله يفتح عليك يا باشا .. ياما نفسي أدور الآن على اللواء اللي ركب امس وأقول له الكلمة دي .. مسير الحي يتلاقى. قلت للرجل: وحضرتك رأيك إيه؟

قال السائق العجوز وقد تقمص شخصيتي وعباراتي في الفضائيات : لو ربنا أراد لنا الخير سيفشلون ، ولو أراد بنا التجربة (قالها : المرمطة) سينقبلون على طول!

المثل الرابع: حوار مع أستاذ طب قدير شارف الثمانين يوماً

سألني قبل أن أجلس إلى منضدة الاجتماعات: هل يظن صديقك الرجل الطيب الرئيس محمد مرسي أن كبار المسؤولين الذين تعودوا على إهانات الرئيس مبارك يمكن أن يتخلوا عن هذه الإهانات، ويؤدوا وظيفتهم من دونها؟ كان الأستاذ يتحدث بما هو معروف عنه من حسم وقوة و صراحة ، قل له: إذا كان يظن الامر كذلك فهو مخطئ، هذا الأسلوب الراقى لا يصلح في سوق السياسة .

رددت بمنتهى الهدوء: أنا أوافق حضرتك لكن هل هناك خطورة من أن يستمر بهذا الأسلوب الذي تعودوه وهو أستاذ هندسة طيلة حياته، ولم يجرب السوق؟

قال: الخطورة؟ ألا تعرف الخطورة ؟ الخطورة يا سيدي أنه يشجع و يسرع الانقلاب؟ قلت: ما علاقة هذا بذلك.

قال أستاذ الطب المخضرم الحكيم: لقد تعود هؤلاء على أساليب الإرهاب والترهيب والزجر وهي دوافع عملهم والتزامهم، فلو اختفت فلن يعملوا وإنما سيتآمرون من أجل أن يعود إليهم شخص يزجرهم ويرهبهم ويخيفهم.

قلت للأستاذ إن هناك حوارًا مسرحيًا شبيهًا بالذي بيننا ، يقول فيه المؤلف المسرحي : كأنما تؤمنين يا عزيزتي بالسادية أو بشيء شبيه بها على أقل تقدير (ولم يكن هناك حوار وإنما أردت وضع الكلام على لسان غيري وأن أجعل المخاطب بالحوار أنتى حتى لا أبدو و كأنني أتجاوز في حق أستاذي)

تنهد أستاذي ، وكان رجلاً قوي الشكيمة لم تنطل عليه الحيلة المسرحية وإنما قال من فوره ، أنا سأقول لك ما قالته البنت : نعم يا حبيبي أو من بالسادية؛ لأنها موجودة وفاعلة، ولا يجوز أن تنكر وجود شيء موجود وفاعل.

قلت: وما توقعك؟ بعد هذه الشهور الثلاثة من حكم مرسي؟

قال: لو استمر بهذا الأسلوب اللين الهين؛ فإن الانقلاب حتمي؛ لأن السلاح لم يطع و لا يطيع ولن يطيع إلا رجلاً قوياً ظالماً.

ثم نظر إليّ وقال: إلا إذا كان عندك دليل على غير ذلك!

قلت: ليس عندي دليل، وليس عندي غير ذلك.

قال: يعجبني فيك اعترافك بالحق مهما خالف رأيك.

وتأوه بصوت عال وقال: هذه فرصة أخرى ستضيع عليك يا مصر بفضل العبيد!!

ثم نظر إليّ وقال: ربنا يحميك من الآتي يا محمد ، فستكون هناك بحار من الدماء و تذكر انني قلتها لك بحار ، و ليس انهار من الدماء.

رحمه الله رحمة واسعة .

الفصل الخامس عشر

البروليتاريا على مسرح اللوتاريا

سرعان ما قاد المناخ التوافقي أو الراغب في التوافق بعد ثورة ٢٥ يناير إلى حالة من حالات التفكير في استثمار الفرصة.

لن أبدأ بالحديث عن طبيعة المطالب الفئوية لأنني لم أكن ضدها أبداً، بالعكس فقد كنت أراها فرصة جيدة لحل كثير من المشكلات شريطة ألا تخلق مشكلات أخرى .. لكنني أحب أن أبدأ بالإشارة إلى موقف كاشف.

كان أحد المتصلين بهيئة المفوضين في المحكمة الدستورية العليا قريباً من لجنة دستور ٢٠١٢ كان يحضر المناقشات وينسق بعض المواقف، ويتولى بعض التنبيهات في الوقت المناسب وينقل الرسائل، ويجيب عن التساؤلات.

قصة الرقم الواحد

ولما تقدمت مناقشات الدستور إلى الدخول في كثير من التفاصيل، وافق الاتجاه العام في اللجنة على طلب بوضع ميزانية القوات المسلحة برقم إجمالي حتى لا تدخل في مناقشات تفصيلية قد تؤذي الأمن القومي، ومع أن هذا يتعارض مع أساسيات كثيرة نص عليها الدستور في مواده، فإن الغالبية التي كانت راغبة في التقدم إلى الأمام وفي إنجاز الدستور وجدت أنه لا مانع من الموافقة على مثل هذا التوافق أو الحل الوسط.

بعد أيام قليلة جداً وفي جلسة تالية فوجئ الحضور بمن يقول إن المحكمة الدستورية العليا تطلب هي الأخرى أن تتساوى مع القوات المسلحة في هذه المزية.

كان رجال القضاء قد نجحوا في الحصول على مبدأ قانوني جيد ومتميز وذكي يتيح لكل الهيئات القضائية أن تطبق أوتوماتيكياً أي مزية تحصل عليها أية هيئة قضائية .. فإذا كان من حق رئيس مجلس الدولة مثلاً أن يصرف بقرار منه (أو من

المجلس الخاص) نوعاً من المكافأة للأعضاء القانونيين في مجلس الدولة ، فإنه يصدر هذا القرار الذي لا يوجد في التشريع قرار مناظر له من رئيس محكمة النقض ، الذي هو رئيس مجلس القضاء الأعلى، وبناء على مبدأ المساواة في المزايا ، يستند رئيس محكمة النقض الذي هو رئيس مجلس القضاء الأعلى إلى قرار رئيس مجلس الدولة ويصدر في اليوم التالي قراره بصرف مكافأة موازية تمامًا لما قرره رئيس مجلس الدولة، باعتباره رئيساً للمجلس الخاص لمجلس الدولة .. ثم يصدر رئيس هيئة النيابة الإدارية ورئيس هيئة قضايا الدولة قرارين آخرين.

تكلفة القرارات

طبعاً نعرف أن أي قرار بصرف مكافآت يعني أن له تكلفة، ومن الطريف أن بعض هذه القرارات يصدر برقم مقطوع توفيراً لمشقة إعداد كشوف بالنسب التي تؤخذ تبعاً للمرتب وما تستلزمه من وقت في إعدادها ومراجعتها، أما صرف مكافآت مالية مقطوعة فأمر أسهل.

وسواء أكان الأمر بهذه الطريقة أم تلك ، فإن هناك تكلفة يمكن حسابها بمجرد النظر، فإذا قلنا إن عدد أعضاء الهيئات القضائية يبلغ في مجموعه عشرين ألفاً؛ فإن مكافأة إجمالية بمقدار خمسة آلاف جنيه تعني أوتوماتيكياً ١٠٠ مليون جنيه.

آه ثم آه لو كان عبد العزيز حجازي وزيراً للمالية وعزيز صدقي رئيساً للوزراء على نحو ما كان الأمر في بداية عهد السادات ما مرت أي خطوة من مثل هذه الخطوة إلا على جثث الوزراء أو رئيسهم.

لكن الأمر تطور على هذا النحو ، بحيث أصبح الأمر في يد القضاء تماماً بعيداً عن أن يكون البند المخصص للأجور أو المكافآت يسمح أو لا يسمح.

أصبح الأمر بالنسبة لرئيس قطاع الموازنة العامة ووزير المالية شبيهاً في تقنياته المالية والإجرائية بأي اعتماد إضافي تصرفه أي دولة للحالات الطارئة كالزلازل والحريق الضخم .. إلخ

ومع تكراره ، أصبح الأمر روتينياً في إطار القول الحق بأن هذا يمثل احتراماً للقضاء وما يبذله القضاء من جهد ولما يستحقه القضاء من راحة وإراحة.

تقنين الأوضاع

كان الجديد هو أن جهة ما في المحكمة الدستورية أو نسبت نفسها إليها (وليس المحكمة ولا رئيس المحكمة) طلبت أن تعامل المحكمة معاملة القوات المسلحة في أن تكون موازنتها موجودة كرقم واحد على سبيل الإجمال.

لم تكن هناك أدنى رغبة في الموافقة على مثل هذه الرغبة المنقولة في الغالب من باب الاختبار و لم تكن المحكمة الدستورية قد قدمته. وهكذا وجد أحد أعضاء لجنة الدستور وهو أستاذ جامعي نفسه يسأل الرجل المتصل بالمحكمة الدستورية سؤالاً مباشراً عن السبب الذي يجعل المحكمة الدستورية العليا تطلب مثل هذا الطلب، ومن حسن حظ التاريخ أن إجابة هذا السؤال المباشر جاءت لتلخص الموقف كله، وتلخص جزءاً من تاريخ الشعب المصري بعد ثورة يناير ٢٠١١ وقبل ثورة يناير ٢٠١١، قال الرجل للأستاذ الجامعي الذي سأله : يا دكتور إنها فرصة مواتية ستضيع ، وإن من يضيع فرصة الحصول على مزية ولا يحصل عليها؛ فلن يحصل عليها أبداً بعد ذلك، حمل الأستاذ الجامعي إجابة ذلك الرجل وجاء إليّ يسألني عن قيمة هذه المزية، وهل هي غطاء لمزايا أخرى غير مرئية وغير مشروعة يتحمل واضعو الدستورية المسؤولية عنها أمام الله؟

قلت للأستاذ الجامعي : لا بد أنك سألته عن مغزى الموافقة ، ضحك وقال: نعم سألته، وجعلت السؤال بطريقة ذكية، فقلت له : إننا استندنا في موازنة القوات المسلحة إلى مبدأ مصلحة الأمن القومي على الرغم من غموض التبرير، فما هو السبب الذي سنستند إليه في موضوع الدستورية العليا، هل الدستورية تعالج الأمن القومي بما يتطلب سرية ميزانيتها .. وكان رده : إنه لا بد من انتهاز الفرصة والحصول على ميزة؛ وإلا فإننا سنخسر كيان الدستورية وأعضاء الدستورية والعلاقة مع الدستورية وهذا كله ليس في مصلحة الشعب ولا الأغلبية !

شرحت لأستاذنا الدكتور الجامعي مبدأ الموازنة في المكافآت والمزايا فاستوعبه على مضض من أن تلجئ الدولة أصحاب العزة رجال القضاء إلى مثل هذا وفي وسعها أن تصدر القرار الكريم من البداية!! لكنه أخذ يفكر في مبدأ الرقم الإجمالي ويسألني عن المزايا الحقيقية الممكنة من مثل هذا النص.

آثار مذبحه القضاء في عهد الرئيس عبد الناصر

ودارت بيننا مناقشات فنية مطولة ليس هذا مجالها، لكن أستاذنا سألني في نهايتها سؤالاً مباشراً عن الدافع الذي يجبر من يعملون مع القضاء على أن يطلبوا كل هذه الطلبات في كل جزئية، وهو أمر لا يراه لائقاً بالقضاء ولا بالقضاء على نحو ما سمع عن قضاة عصر الباشوات الذين كانوا هم الكل في الكل في الوطن.

قلت لأستاذنا : هذا هو السبب يا سيدي فقد بلغ عسف النظام العسكري الناصري بهم حدًا من الظلم جعلهم الآن يخافون ويتحسبون من عودة النظام العسكري.

- إنهم هم الذين يعيدون النظام العسكري بل يستدعونه بمثل هذه التصرفات

- نعم ، لكنهم يريدون من قبل النظام العسكري (وقد أصبحوا يتخيلونه عائدًا بقوة) كثيرًا من الضمانات.

و بدأت بيني وبين صديقي عضو لجنة الدستور محاوره أو ما يشبه مناظرة اشترك فيها صديق آخر كان قريباً منا:

- تعني أن من يخافون من الانقلاب وعودة حكم العسكر ، يمهدون أنفسهم للحياة والتأقلم مع النظم الانقلابية بضمانات خاصة بهم أكثر من ضمانات المواطنين الآخرين.

- ومن يضمن ؟ من يضمن لهم ألا يعسف العسكر تدريجياً وبلا رادع بكل الضمانات التي سيحصلون عليها الآن؟

- نعم ، هم فيما صرحوا لنا به يعرفون أنهم لا يضمنون ، لكنهم يريدون كسب بعض الوقت؛ فإن النظام العسكري سيحتاجهم كثيراً في البداية قبل أن يتخلى عنهم،

ولهذا فإنهم يريدون أن يطيلوا من فترة احتياج العسكر لهم، ثم أن يطيلوا من فترة ضمانهم للمزايا التي تمكنوا من الحصول عليها.

- وهل فعل بهم عبد الناصر وبتفكيرهم كل هذا الظن السيئ؟

- نعم، فعل بهم أكثر من هذا.

قصة مبنى الوزارة

- - إنني أقدر محنتهم في مذبحه القضاء ، لكنهم فيما أعلم كانوا يعيشون قبل مذبحه القضاء بلا تنغيص.
- - بالعكس فإنهم منذ ١٩٥٢ يعيشون التنغيص كله، وليس هذا مقامًا للحديث عما عانوه وعما عاشوه، لكنني سأكتفي لك بمثل واحد فقط : هل ترى مبنى وزارة العدل الذي في لاطوغلي؟
- - المبنى الذي في لاطوغلي ليس لوزارة العدل ، وإنما هي أدوار في وزارة المالية.
- - هذه الجملة تعبر عن قمة جبل الجليد ، فالأرض أصلاً كانت مبنى وزارة العدل فلما أزيل المبنى القديم نقلوا إلى مباني أخرى لائقة ثم شرعت الدولة في بناء مبنى لوزارة المالية على أرض وزارة العدل، وانتظر القضاة حتى بدأت ملامح المبنى تتشكل فطالبوا بحقوقهم الشرعي في أرضهم وما يقام عليها من المباني.
- - الآن فقط فهمت معنى المثل : يا باني في غير ملكك يا مربى في غير ولدك.
- - إن هذا المثل ينسف العملية التربوية كلها في شقه التربوي (أي الوضع المشبه به)
- - بل إنه ينسف الدولة كلها في شقه البنائي (أي الوضع المشبهه)!!
- - لو كنت من وزارة المالية ما بقيت في هذا المبنى يوماً واحداً وعندهم الموازنة بينون ما يريدون
- - هذا ما فعلوه عندما بنوا أبراج المالية قرب طريق النصر
- - وماذا كانت أرضها؟

- - كانت أرضا للجمارك
- - لا بد أن هذا حدث في عهد صديقك عاطف صدقي فهو الذي كان ينتبه إلى مثل هذه الدقائق والدقائق.
- - نعم وهو أيضا الذي أتم لمجلس الدولة البناء الذي يشغله الآن.
- - وأين كان بناؤه السابق؟
- - كان هو القصر الذي بين البناء الحالي والنيل ، ولا تزال لهم أبنية موزعة على مواقع كثيرة في القاهرة وغيرها.
- - نعم أنا أمر بمبنى جميل في الإسكندرية عليه لافتة لمجلس الدولة.
- - لا تنس أن أكبر وريث لمباني الحزب الوطني بعد ثورة ٢٠١١ كان هو مجلس الدولة وفروعه في المحافظات.
- - لا أعرف هذا ، لكنني أعرف أن مباني الحزب الوطني هي مباني الاتحاد الاشتراكي وما سبقه من تنظيمات ثورة ١٩٥٢ ، وهي كيانات وهمية وشكلية واستولت الدولة على هذه المباني بالسحت.
- - هكذا ينظر الناس إلى كل ثورة، أنها فرصة : من انتهزها فاز ، ومن أهملها ندم.

تتهد أستاذنا تنهدًا عميقًا وقال، وهو يضحك، لو كنت من هؤلاء لطلبت أن تقر موازنتهم هم بكل طلباتها في جلسة، ثم نقر موازنة الدولة كلها في جلسة أخرى بما تبقى من اعتمادات ورصيد للدولة.

ثم أردف بتكرار الجملة التي قالها له الرجل: يا دكتور من لا يحصل على الفرصة الآن لن يحصل عليها أبدًا.

الفصل السادس عشر

موال البكاء على اخلاق الماضي

نختم هذه الفصول بفصل نظري قد يبيلور المعاني التي أردنا أن نعبر عنها (في الفصول السابقة) عن طريق اللجوء إلى أعطاف الحياة نفسها و ما تضمه ثنايا الحياة من وجوه ومفارقات ، لكن المفارقة هنا هي أنه لا توجد مفارقة ، وأن القاعدة هي القاعدة ، وأن الأخلاق هي الأخلاق ، وأن الوراثة قد تكون سبيلا للتوريث ، لكن التوريث ليس ضمانا للوراثة كما أن الزمن يكفل لنا أن نكتشف بعد مرور السنوات أن الحقيقة مبصرة ، و أننا نحن الذين لا نراها في الوقت المبكر .

الهدوء المنتج والهدوء المربي

أذكر في الدلالة على الوجه التكويني أو التربوي من الأخلاق قصة سيدة شابة فاضلة كان موقفها في المؤسسة التي تعمل فيها يؤهلها لمستقبل واعد ، فقد كانت قادرة على الانجاز الهادئ المهدب كما كانت نشيطة خدومة ، وقد تجلى هذا لي (في مستشفى من المستشفيات الخاصة كنت أتردد عليه) من زيارتها الدؤوبة لذلك المستشفى لمتابع أحوال المرضى الذين ينتمون إلى المؤسسة التي تعمل فيها ، ومع أنها كانت في موقع وظيفي متقدم على الرغم من صغر سنها فإنها كانت تؤدي هذا العمل بسعادة ورضا ، وكنا نحن الأطباء نحسن معاملتها ونكرم وفادتها لما نلمسه من عناصر الانسانية الصادقة في شخصياتها.

مرت الأيام و الشهور وازدادت صورتها المنجزة الهادئة الملتزمة المتزنة رسوخاً في مخيلتي حتى كان يوم كنت فيه مع صديق في أحد المطاعم الراقية ، وفي مواجهتي أب وابنته الطفلة الصغيرة وفي مواجهة الأب زوجه التي لا أرى إلا ظهرها ، ولم يكن مما يشغلني أن أعرف من هي التي أمامي ، ولا من هو الذي أمامي لكنني بعد خمس دقائق فقط من جلوسي بدأت أتوتر من كمية الأوامر التي تلقىها الأم بصوت مسموع لابنتها الطفلة فيما يتعلق بالشوكة والسكينة والمنشفة

والطبق والكوب وحجم القطعة او القضمة ، وطريقة تحريك الطعام وطريقة تناوله
... الخ .

كانت حزمات التعليمات متوالية عاصفة ، صحيح أن صوت السيدة الشابة كان
خفيضاً لكنه كان بحكم قرب المناضد مسموعاً ، أما حركات يدها في الهواء ودقات
قبضتها على المنضدة فقد كانتا كفيلتين بتنبيه من في الشارع المجاور للمطعم لا من
على المنضدة التالية حيث كنا نجلس .

القلق من الانضباط

أبدى صديقي الذي كان يشاركني منضدتي قلقه السافر وعبثاً حاولت تهدئته ،
ولولا أننا كنا في عجلة من أمرنا لكان قد أصر علي تغيير المنضدة إلى ركن آخر
من المطعم .

حاولت أن أفهمه أن السيدة تبت أصول الاتيكيت في ابنتها بطريقة منظمة لكنه
كان نافرماً ومستفزاً .

انتهينا من طعامنا بأسرع مما ينبغي ، و التفت وأنا خارج إلى السيدة التي أثارت
كل هذا القلق ، فوجدت أنها ليست إلا تلك السيدة الفاضلة التي كانت رمزاً للهدوء
المنتج على مدى أعوام سابقة.

مرت الأيام مرة ثانية واتيح لي أن أعالج شخصاً كان يعمل في المؤسسة التي
تعمل فيها ، فقصصت عليه اهتمامها بأمر زملائه ، ففوجئت به يبدي انطباعاً سلبياً
تجاهها لا لشيء إلا لأنها بنت سيدة المانية ولم يكن هو يجيد الالمانية ولا يحب
الالمان ، وهكذا فإنه كان غير قادر على أن يستوعب شخصيتها ولا أن يمدحها ولا
أن يذمها ، كل ما كان في وسعه هو أن يشير بألم إلى هذا الأصل الألماني الذي لا
يرتاح هو إليه ، ولم يكن المقام يسمح له أن يستزيد في تعمق الالمان ولا في التعلم
منهم إذ كان يكفيهم أن يتحفظ عليهم فحسب .

الملاح لا تتكرر

على نسق هذا الصورة التي قد تبدو جمعت النقيضين أذكر قصة بدأت ملامحها في عام ١٩٨٠ حي اتفقت مع استاذ كبير التقيت به في الخارج على أن أبعث له كتاباً من كتبي التي صدرت في ذلك الحين عن طريق شقيقته المقيمة في القاهرة ، ذهبت إلى منزل شقيقته لا لشيء إلا لمجرد تسليم الكتاب ، وهو أمر يمكن أن يتم في دقيقة على الباب ، لكن السيدة الفاضلة العطوفة المهذبة هي وأسرتها أصروا جميعاً على استضافتي لدقائق ، وعبثاً حاولت الاعتذار بما كنت مرتبطاً به بالفعل من مواعيد تالية ، وعلى مدى نصف ساعة خبرت من صنوف الرقة المتناهية ما لم اره بعد ذلك أبداً .

بعد عشرين عاماً بالتمام والكمال أتيج لي أن أتعامل في أحد البنوك بالإسكندرية مع سيدة مسؤولة عن المكاتب الأمامية التي تفتح عندها الحسابات وتتولي تحويل المبالغ الضئيلة ، وكانت معي والدتي عليها رحمة الله ، وانصرفنا ونحن في غاية التقدير لهذه السيدة التي كانت تنجز كثيراً من العمل في رقة وأدب وهدوء لم نر مثلها من قبل ، لكنني فجأة تذكرت السيدة التي التقيت بها في عام ١٩٨٠ واستقر رأيي في ذهني على أن هاتين السيدتين دون غيرهما تتنافسان على المركز الأول في الأخلاق التي ذكرتها لتوي .

كانت السيدة الأولى مسيحية بينما كان اسم السيدة الثانية في بدايته ونهايته يتوافق مائة في المائة مع ان تكون مسلمة ولم يكن في أدائها ولا كلامها ولا هيئتها و لا اكسسوارها ولا مكتبها أي شيء قد يوحي بأنها غير مسلمة .

لم أعرف الصلة إلا من النعي

بعد ٥ سنوات وبالصدفة البحتة قرأت في الأهرام نعي السيدة الأولى التي زرتها في بيتها عام ١٩٨٠ ، وكنت بالطبع أعرف اسم عائلتها من اسم شقيقها الكاتب الكبير لكنني لم أكن أذكر اسم عائلة زوجها ، و بالطبع كان اسم الزوج وعائلة الزوج موجودين ثم لهول المفاجأة أجد أنها هي هي والدة السيدة التي تعاملت معها في البنك منذ سنوات وحتى ذلك التاريخ وكأن الابنة ورثت من الأم كل الرقة والتواضع

والدمائة والانجاز والهدوء ولم تترك الأم والأبنة لأحد آخر اي قدر من هذه الصفات

كان لقب عائلة الابنة لقباً يستعمل في عائلات المسلمين اضعاف ما قد يستعمل في عائلات المسيحيين ، بل انني لم أجده في لقب عائلة مسيحية غير هذه العائلة ، بينما كان لي أصدقاء ومعارف كثيرون من المسلمين يحملون هذا اللقب ، لكن المفاجأة الأكبر كانت أن اسم الابنة كان اسماً اسلامياً خالصاً بحيث لا يمكن أن يفكر من يسمعه في أن تكون صاحبه على دين غير دين الاسلام .

لكنني في ذلك اليوم تعلمت درساً آخر وهو أن جينات الأخلاق غالبية وأنها وحدها يمكن أن تثبت النسب وإن كانت بالطبع لا يمكن أن تكون دليلاً على نفيه .

قدرة علم الوراثة على التشخيص

أقصد أن اقول إن الوراثة (بلغة العلم) اختبار جيد في الايجابية لكنه غير جيد في السلبية ، أو بالوصف الانجليزي المباشر اختبار ايجابي جيد لكنه ليس اختباراً سلبياً جيداً ، أي أنه يساعد على الاثبات لكنه وحده لا يساعد على النفي .

هل أقول : إن في هاتين القصتين موجز مركز من كتابنا هذا كله ؟

المحتويات

٥.....	هذا الكتاب
٧.....	الفصل الأول
٧.....	مقدمة من مقام الرصد لقصة النائب
٧.....	خسارة الموقع الأكثر تحصينا
٨.....	لم أكن مفتونا كالناس
٩.....	مهررات التحفظ على الأداء
١٠.....	غفلة الساسة عن أن يؤسسوا أحزابهم
١١.....	الاعتذار اليوم والترشح غدا
١٣.....	أليس أحسن من غيره؟
١٥.....	الفصل الثاني
١٥.....	مقدمة من مقام النهاوند لقصة الفريق
١٥.....	افتعالات تاريخية
١٦.....	التخريب بحسن نية
١٧.....	الأسلوب الأمثل
١٨.....	الاقتصاد يتغير
١٩.....	حدث ما خشيته
٢٠.....	الفصل الثالث
٢٠.....	الحن الحزين في وصف وزارة الفريق
٢٠.....	مهارة الانتقال
٢١.....	نصيحة ذهبية
٢٣.....	مقال : مطار جديد في مدينة ٦ أكتوبر
٢٣.....	القرار الخاطئ
٢٦.....	الفصل الرابع
٢٦.....	تنويعة لحنية على انترنت الثورة
٢٦.....	الفرق بين فهمنا و فهم المهندسين
٢٧.....	بلغة الهندسة : خروجًا على المؤلف
٢٧.....	قصة توفير الحاسبات للشباب
٢٨.....	هل يصبح رأس المال متكونا من أفكار متطايرة

٢٨.....	لانعرف قيمة الأرشيف
٢٩.....	الثورة جد لا هزل فيه
٣٠.....	الفصل الخامس
٣٠.....	مقدمة من مقام البياتي لإرهاصات الثورة
٣٠.....	روح الفداء الصادقة
٣١.....	الأثر المباشر لتوسيع قاعدة الجامعيين
٣٢.....	أحد الآثار الإيجابية للانفتاح الاقتصادي
٣٤.....	الفصل السادس
٣٤.....	موال الشيخ على تبديد القوة
٣٥.....	المحصلة النهائية
٣٥.....	تعددت الفئات
٣٦.....	الرد ومعنى الرد
٣٦.....	شرعية الميدان فوق شرعية البرلمان
٣٧.....	لم يكن أحد يتخيل
٣٩.....	الفصل السابع
٣٩.....	مزمارة الزهاب من الشباب
٣٩.....	الحيل التقليدية
٤٠.....	إيفاد خبراء في مهمة تخريبية
٤١.....	الهدامة
٤٢.....	الانتقال من الحوار إلى التلقين
٤٣.....	الطب الشرعي علمنا
٤٤.....	الخروج عن الصمت
٤٥.....	حادث بورسعيد كان كاشفا بما فيه الكفاية
٤٦.....	الفصل الثامن
٤٦.....	ديالوج الحوار الصياد
٤٦.....	لم أكن أصدق
٤٧.....	يراجع صفحة النبي من أن لآخر
٤٨.....	المساران المتوازيان
٤٩.....	فكرة وزارة الإنقاذ
٥٠.....	تهديدات من غير ذات صفة
٥٠.....	بعض ما ستعيد إنتاجه الثورة

٥١.....	ليتني ما اقترحت قرار رفع الجلسة.
٥١.....	والحمد لله كانت سليمة
٥٢.....	يجاهرون بهذا قائلين : حتى لو قلتهم إننا رجعيون وفلول!!
٥٢.....	كيف استطاع ان يترك البنك
٥٢.....	تصوير الأمور تحت الصفر ليكون أدأؤه قد حقق شيئاً
٥٣.....	وأنه وحده القادر على الحل
٥٣.....	مشكلات مصطنعة تماماً ومضحكة
٥٤.....	الحرص على البعد عن اللب
٥٤.....	جنئ لاستعراض المواهب الجمالية
٥٥.....	الفصل التاسع
٥٥.....	مونولوج السلطة
٥٥.....	الإيمان بالعنف
٥٦.....	الترهيب المدروس
٥٧.....	الأمريكان يحذرون
٥٨.....	دور الصحفي القديم الحقود
٥٩.....	الفصل الثامن
٥٩.....	كونشرتو المستشار
٦٠.....	كيف بدأت المستشار الكونشرتو
٦٠.....	أول تفكير في الثورة المضادة
٦١.....	من أفناهم الزمن
٦٢.....	لم تكن مستعدة
٦٢.....	السرد والدراما
٦٣.....	أربع سنوات
٦٤.....	الفصل التاسع
٦٤.....	ترانيم التوجس المبرر
٦٤.....	أيام غير قابلة للتكرار
٦٥.....	الشعارات البراقة
٦٦.....	الحرص على التبرؤ
٦٧.....	الرسالة وظيفية
٦٧.....	البحث عن غطاء
٦٩.....	الفصل العاشر

٦٩.....	أسطوانة النشيد المشروخة
٧٠.....	أصبح جزءاً من هذا الشعر
٧٠.....	الحياة حافلة بالنفاق
٧١.....	الاستشارات التي تتعلق بالمبدعين
٧٢.....	العودة إلى الستينيات
٧٢.....	مكتب التوظيف الانقلابي
٧٣.....	كنت أرثي له وأرثي لوطني
٧٤.....	الفصل الحادي عشر
٧٤.....	اوبريتات الفضائيات
٧٤.....	فضل برنامج دعم الديمقراطية
٧٤.....	الذوق الفردي الشاذ
٧٥.....	دخلوا بطريقة المحاكاة
٧٦.....	المصالح هي أقوى قيد على التقدم المهني
٧٧.....	غياب التأهيل
٧٧.....	عشوائية الأداء
٧٨.....	فكرة النضج
٧٨.....	حمى التردي الفكري
٨٠.....	دلالة التأمل
٨٠.....	انحصار علم "تحليل المضمون" في العلاقات الشخصية
٨١.....	مجتمع الثورة الذي لم نعرفه من قبل
٨٢.....	العلاقات بديلاً عن الكفاءة
٨٣.....	توازن الرعب
٨٤.....	الفصل الثاني عشر
٨٤.....	أوركسترا المفاجأة
٨٨.....	الفصل الثالث عشر
٨٨.....	كوميديا الأوهام
٨٨.....	حسن الظن بحسن الاختيار
٨٩.....	المجلس العسكري يحكم على الأماني بالنقض
٩٠.....	قصة المحامي الذي اختير للجنة
٩١.....	فعل الاختيار
٩٢.....	الفصل الرابع عشر

٩٢.....	حجز الكراسي في مسرحية الانقلاب
٩٢.....	هذا ما حدث بالفعل
٩٣.....	الممثل الأول على لسان وزير متحضر
٩٣.....	الممثل الثاني على لسان قائد سيارة شاب
٩٤.....	الممثل الثالث كان على لسان قائد سيارة مسن
٩٥.....	الممثل الرابع: حوار مع أستاذ طب قدير شارف الثمانين يومها
٩٧.....	الفصل الخامس عشر
٩٧.....	البروليتاريا على مسرح اللوتاريا
٩٧.....	قصة الرقم الواحد
٩٨.....	تكلفة القرارات
٩٩.....	تقنين الأوضاع
١٠٠.....	آثار مذبحه القضاة في عهد الرئيس عبد الناصر
١٠١.....	قصة مبنى الوزارة
١٠٣.....	الفصل السادس عشر
١٠٣.....	موال البكاء على اخلاق الماضي
١٠٣.....	الهدوء المنتج والهدوء المرئي
١٠٤.....	القلق من الانضباط
١٠٥.....	الملامح لا تتكرر
١٠٥.....	لم أعرف الصلة إلا من النعي
١٠٦.....	قدرة علم الوراثة على التشخيص

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

**The Tilted Walls in
The Egyptian Revolution
2011-2012**





الدكتور محمد الجوادى

كان الرهان الطبيعي للانقلابيين هو العنف، ولم يكن أحد من المصريين يدرك سطوة هذه الحقيقة على نحو ما كان يدركها الأمريكيان، وليس معنى هذا أن الأمريكان أفضل أو أعظم من المصريين، لكنهم بلا شك أعلم منهم وأقدر على صياغة التشخيص ذي الأولوية، وعلى الرغم من اختلافي مع الأمريكيين في كثير من التشخيصات العمومية والتشخيصات الجزئية، فلا بد لي من الاعتراف بأن تركيزهم على توظيف كلمة العنف واستخدام العنف كان عبقرياً بكل ما تعنيه كلمة العبقرية. لم يحقق العسكريون أي نتيجة من نتائج الارتقاء الفكري المتوقع من الحوارات التي دعوا إليها وأداروها ونسقوا موضوعاتها ورسموا خططها، بل على العكس من هذا كله كانت هذه الحوارات دافعا لهم للجوء إلى العنف، ذلك أنهم لم يكونوا سعداء بمن جاملوهم ووافقوهم، وإنما كانت السعادة تتلاشى تماما بسبب من أرشدوهم إلى الصواب، أو من أظهروا لهم التعجب من أسلوبهم في الحوار والتعامل مع نتائجه. وهكذا كانت الحوارات تعيدهم إلى العنف، والتفكير في العنف، والإيمان بالعنف، والعودة إلى إستراتيجية أخرى هي باختصار إستراتيجية محاولة الحصول على الإذن الأمريكي بالتغاضي عن العنف، وكانت هذه الإستراتيجية تحتاج إلى تركيم (ولا نقول إلى تراكم) أدلة كثيرة تؤيدها وتجعلها أمام الأمريكيين (المخابراتيين والرسميين والدبلوماسيين) بمثابة البديل الوحيد، ولما اكتشف الانقلابيون أن هذا غير ممكن اندفعوا إلى التحذير من قوة الإسلام ومن الإسلام ومن أن الإسلام هو البديل الوحيد المتاح ومن ثم فلا بد من محاربة الإسلام ولما كان هذا غير لائق منطق بأي منطق فقد استعاروا كلمة الإرهاب لتوضع مكان الإسلام

